ندوة الأمازيغية: هوية ثقافية أم رهان سياسي؟

أعدّها وقدّمها: عبد الحق لبيض
المشاركون: ابراهيم أخياط، أحمد أرحموش، مصطفى المسعودي، أمينة بنت الشيخ، عمر أمرير

عبد الحق لبيض

لبيض: أرحِّب بكم باسم مجلة الآداب **على تفضّلكم بالحضور من أجل مناقشة موضوع المسألة الأمازيغية في أبعادها الثقافية والسياسية. لقد أضْحت المسألة الأمازيغية تحتلّ مساحةً كبرى من فضاء النقاش في المشهد الثقافي والسياسي في مغرب اليوم، متأثِّرةً بتراكمات المنجَز الحركي الأمازيغي طيلة ثلاثين سنة، ومتفاعلةً مع فترةِ «الانفتاح السياسي» وما يستتبعه من طرحٍ لقضايا ظلت مهمَّشةً منذ بزوغ الاستقلال الوطني، ومستَفيدةً من التيار العالمي المتنامي الراهن الذي يطالب بالحقوق الثقافية للشعوب من خلال تبني مفاهيم «الديموقراطية» و«التعددية الثقافية» و«الذات الثقافية» وسواها من المفاهيم التي تعجّ بها الساحةُ الحركيةُ للدفاع عن حقوق الإنسان.**

لكنّ الطرح الأمازيغي في المغرب يظلّ طرحًا إشكاليًا. ومن أهم إشكالاته التباسُ السياسي والثقافي فيه. ومن هنا يأتي السؤال: هل الحركة الأمازيغية حركةٌ ثقافيةٌ تنادي بالحقوق المواطنية للثقافة الأمازيغية باعتبارها ثقافةً وطنيةً وأساسًا بنيويًا في التشكيل الهوياتي للمواطن المغربي، أمْ هي حركة سياسية تَهْدف إلى إعادة بناء الدولة ـ الأمة على أسس تمّ إقصاؤها في مرحلة بناء الدولة الوطنية بعد الاستقلال؟

إنّ مجلة الآداب، **وهي تَفْتح ملفَّ «العروبة الجديدة» منذ عامين، كان قصدُها إعادةَ تمثُّل قضايا القومية العربية في ظلِّ سياقٍ أرحبَ يعيد الاعتبار إلى المكوّنات الرئيسة للذات العربية ويفْسح المجالَ لها للتعبير عن نفسها دون قمعٍ أو إقصاء؛ ذلك أنّ المشروع القومي في تجدد أسئلته هو مشروعٍ الإنسان العربي في تعدده واختلافه وحواريّة مكوِّنات شخصيته الوطنية والقومية. وبهذا المعنى يكون المشروعُ القوميُّ العربي مشروعًا حضاريًا وثقافيًا، لا مشروعًا إيديولوجيًا أو عرقيًا أو شوفينيًا؛ مشروعَ احتضانٍ لا مشروعَ إقصاء. ولهذه الغاية نَشَرت** الآداب **ملفًا كبيرًا عن الأكراد، وهي تستكمله اليوم بملفٍّ عن الأمازيغ في المغرب؛ ورحلتُها متواصلةٌ في الكشف عن موضوعات أخرى تمسّ المشروعَ القوميَّ العربي من منظور مختلف لا يستعين بشعارات الوحدة والتماثل لإخفاء التنوّع والاختلاف، ولا يتسترّ وراء دعاوى التماسك والانصهار في وحدة أزلية لصدّ المؤامرات الخارجية. وإنّما المشروعُ القوميُّ الجديد الذي تتبنّاه المجلةُ يرى أنّ الوحدةَ القسرية، وغيابَ المناخ الديموقراطي عن الفعل الاجتماعي والسياسي، هما آفة الخطاب الإيديولوجي كما مارسته بعضُ التيارات السياسية والسلطوية التي تبنَّت الخطابَ القومي.**

ولفهم الخطاب الحركي الأمازيغي واستيعاب أبعاده، وللوقوف عند أهم المحطات التاريخية للحركة الأمازيغية المغربية، أَطْلُب من الأستاذ إبراهيم أخياط ـ باعتباره قَيْدومَ المناضلين الأمازيغيين المغاربة ـ أن يقدِّم للقارئ العربي صورةً متكاملةً لمشروع الحركة الثقافية الأمازيغية منذ بداياتها إلى الآن.

إبراهيم أخياط: أشكر بدايةً مجلةَ الآداب على هذه الاستضافة، وهذه المبادرة المتميزة. وهذا التميُّز مصدرُه أنّنا، ولأول مرة في تاريخ الحركة الثقافية الأمازيغية، نعالج موضوعًا بحساسية القضية الأمازيغية في منبر إعلامي رائد في مضمار القومية العربية ومرتبط ارتباطًا عضويًا بما عبَّر عنه الأخ لبيض في تقديمه بـ «الوطن العربي»، وهو الوطن الذي يمتد في اعتقادهم ـ المعادي لاشتراطات التاريخ ولحقائق الجغرافيا! ـ من المحيط إلى الخليج.

يُمْكننا تناولُ الحركة الأمازيغية في المغرب من خلال أربعة محاور أساسية تكوِّن مدخلاً ضروريًا لكي يستوعب القارئُ العربي لمجلة الآداب الأطروحةَ الأمازيغيةَ من خلال منطلقاتها الفكرية والتاريخية والسياسية. وهذه المحاور الأربعة نوردها على الشكل التالي: ١ ـ الأسباب الرئيسية لظهور الحركة الثقافية الأمازيغية. ٢ ـ تطور هذه الحركة. ٣ ـ مطالب هذه الحركة. ٤ ـ الأبعاد الفكرية والسياسية للعمل الأمازيغي والتحولات المرتقبة.

سياسة التعريب هي العمل الممنهج على مسخ الخصوصية الحضارية من خلال إقصاء المكوِّن الحقيقي للشعب المغربي: الأمازيغية

١ ـ الأسباب الرئيسية لظهور الحركة الثقافية الأمازيغية. وهذه يمكننا إجمالها في ثلاثة أسباب: اقتصادية، وثقافية، واجتماعية. بالنسبة إلى السبب **الاقتصادي**، نشير إلى أنّ مغربَ ما قبل الاحتلال الفرنسي لم يكن يَعْرف نظامَ الدولة المركزية؛ فقد كانت المناطق المغربية تدير نفسَها بنفسها من الناحية الاقتصادية، والملكُ كان بمثابة سيادةٍ رمزية. والذي أَدْخل مفهومَ الدولة المركزية هو الاستعمار الفرنسي. وممّا لا شكّ فيه أنّ تطبيق هذا المفهوم في النظام السياسي المغربي أَفْرزَ مجموعةً من الظواهر الإيجابية، غير أنّه في المقابل أَنتجَ جملةً من السلبيات تمثَّلتْ بالأساس في عدم المساواة بين المناطق في السياسة التنموية الاقتصادية. وقد انتهجت الإدارةُ الاستعماريةُ هذه السياسةَ بشكل مقصود حتى تؤدِّب المناطقَ التي قاومت الاحتلالَ ولم تستسلمْ لقيادته، ومنها بالدرجة الأولى المناطقُ ذاتُ الكثافة السكانية الأمازيغية. وبالتالي كان من المنطقي أن تبادر هذه الإدارةُ إلى تقسيم المغرب إلى مغربين: المغرب النافع، والمغرب غير النافع. ففي حين حُرمت المناطقُ الأمازيغيةُ من الوسائل الأساسية، من تعليم وبنيات تحتية ومن جميع الإمكانيات التنموية، جازى الاستعمارُ مناطقَ أخرى من المغرب، وخاصةً في المدن الكبرى التي ساهمتْ فيها عائلاتٌ مشهودٌ على تعاونها مع الإدارة الاستعمارية، فكافأتها بأنْ وفّرتْ لها فرصَ التعليم العصري ومكّنتها من البنيات التحتية ومن الإمكانيات التنموية. وإبّان الاستقلال نفاجأ بالحكومات المغربية المتعاقبة تزيد من تعميق الهوة وتشرعن السياسةَ الاستعمارية بحفاظها على النظرة التقسيمية المجحفة في حقّ «المغرب غير النافع.» والحقّ أنّ كلمة «السيبة،» التي تكررتْ على الألسن وتم توظيفُها بحذقٍ من طرف «المَخْزَن» المغربي، لم تكن بمعنى الفوضى والإخلال بالأمن العامّ، بقدْر ما عبّرتْ عن انتفاضة شعبية في المناطق التي حُرمتْ أبسطَ ضروريات الحياة ـ ومنها المناطقُ الأمازيغية.

في الجانب **الثقافي**، واجهت الأمازيغيةُ ظاهرةً استئصاليةً وإقصائيةً عنيفة من لدن مركز القرار السياسي في البلاد. فقد انتهجتْ كلُّ الحكومات المتعاقبة منذ الاستقلال سياسةَ التعريب الهادفة إلى مسخ الخصوصية الحضارية الوطنية من خلال إقصاء المكوِّن الحضاري الحقيقي للشعب المغربي، والمتمثِّل في الثقافة الأمازيغية واللغة الأمازيغية والقيم الرمزية للحضارة الأمازيغية. وهذا ما جعل من المدرسة المغربية فضاءً غريبًا وبرّانيًا عن المواطن المغربي؛ فهو يتلقّى فيها تاريخًا مشوَّهًا وأدبًا مزوَّرًا ولغاتٍ أجنبيةً عنه، فيؤثِّر ذلك كلُّه في تكوينه الشخصي الذي يصاب مع مرور الوقت بنوع من الانفصام الحادّ: بين واقع عَيْشٍ له خصوصيتُه وأبعادُه، ومدرسةٍ لا تمتّ إلى هذا الواقع بصلة إذ لا تجيب على تطلُّعاته وأحلامِه وآفاقِه.

هذه السياسة التعليمية كانت لها كذلك انعكاساتٌ على المستوى **الاجتماعي**. ذلك لأنّ أبعاد الهوية التي تلقَّن له داخل المؤسسة التعليمية تظلّ غريبةً عنه ولا تمثّل محيطَه المعيشي. فكان أن تكوَّن لديه إحساسٌ بالاندماج القسري والقهري في إطار هوية أخرى أجنبية وبديلة. وكانت الدولة قد انتهجتْ لتحقيق هذه الغاية سياسةَ تشجيع الهجرة من البادية إلى المدينة حتى تسهِّل عمليةَ الإدماج والذوبان. وإلاّ لماذا حَرَمت الدولةُ المناطقَ الأمازيغية من التنمية الشاملة في كل المراحل السابقة والراهنة؟!

٢ ـ تطور الحركة الثقافية الأمازيغية. إذا كانت المدرسة قد ألغت الشخصيةَ الوطنيةَ ومَحَتْ معالمَ الهوية الثقافية للمواطن المغربي، فإنّها عملتْ في جانب آخر على تأهيل العنصر البشري من خلال ما وفَّرتْه له من إمكانية للاطّلاع على العلوم الحديثة وعلى النظريات العلمية والفكرية التي ساهمتْ في تفتُّح عقليته على جملة من الإشكاليات الفلسفية واللسانية والهوياتية التي يعيشها. من هنا تكوَّنتْ نخبةٌ مثقفةٌ من رعيل الطلبة الجامعيين الذين بدأوا يَطْرحون، بشكلٍ متطور وواعٍ، الإشكالَ الهوياتيَّ كمعضلة اجتماعية وثقافية وسياسيةٍ واقتصادية. ونتيجةً لهذا التحول، بدأ الاتجاهُ نحو تشكيل حركة ثقافية أمازيغية تعبِّر عن ذلك الإشكال وتتمثَّل أبعادَه الثقافيةَ والحضاريةَ من خلال طرحه في الأوساط الثقافية والسياسية

الوطنية بغيةَ لفتِ الأنظار إليه والتحسيس بمخاطره على مستقبل البناء الديموقراطي للمجتمع المغربي. وهكذا تأسست «الجمعيةُ المغربيةُ للبحث والتبادل الثقافي» في ١١ نوفمبر ١٩٦٧، في إطار سياق سياسي واجتماعي اتسم ببروز دينامية احتجاجية تسعى إلى المطالبة بإيجاد حلول للمسألة الأمازيغية ولقضايا مختلفة تجاهلت الحكوماتُ المغربيةُ منذ الاستقلال التغاضي عنها. وهذا يدلّ على أنّ الحركة الثقافية الأمازيغية هي وليدةُ الحاجة المجتمعية والشرط التاريخي للمغرب المعاصر، وليست أداةً حَرّكتْها أيادٍ أجنبيةٌ تسعى إلى إرباك المجتمع المغربي وإشاعةِ روح الفتنة في أوساطه.

مرّت الحركة الثقافية الأمازيغية بمجموعة من المراحل:

المرحلة **الأولى**، من أواخر الستينيات إلى سنوات الثمانينيات، وتمثّل مرحلةَ التأسيس للحركة الثقافية الأمازيغية. فقد كنّا، كطلبة، في حاجة إلى تكوينٍ وتأهيلٍ خاصيَّيْن لقدراتنا الفكرية؛ وتمكّنّا آنذاك، إلى جانب تجميع التراث وتسجيله وتدوينِهِ واستصدارِ بعض الأعمال، من تكوين أنفسنا كلسانيين وأنثروبولوجيين وسياسيين. وفي صيف ١٩٨٠ بادرت الحركةُ الثقافيةُ الأمازيغية إلى خلق جمعية «الجامعة الصيفية» بأكادير، وهي أول جامعة صيفية يَشْهدها المغربُ آنذاك، وبمثابة جسر للاحتكاك وللتلاقح. وأحست الحركةُ الثقافيةُ الأمازيغية أنّها أَضْحتْ تَمْتلك أرضيةً فكريةً تَسْمح لها بمبارزة الإيديولوجيات السائدة لحظتها ــ وبالأخصّ القومية العربية والاشتراكية والإسلامية.

كما استطاعت الحركة الأمازيغية في تلك الفترة تحطيمَ حاجز كان قائمًا في الثقافة المغربية، ويتمثّل في شيوع نزعة التقوقع ورفضِ الآخر وإقصائه لمجرد الاختلاف معه. فكان أن دَعَتْ إلى جامعتها الصيفية كافةَ التيارات الموجودة في الساحة السياسية والفكرية المغربية. ولأول مرة بدأ المجتمعُ المغربي يَسْمع أصواتًا تعبّر عن هموم الأمازيغ في المغرب، لدرجةِ أنّ غالبية الأحزاب في تلك الفترة أَقْدمتْ على تنظيم ندوات لشبابها قَصْدَ تعريفهم بأبعاد الحركة الأمازيغية؛ كما بدأتْ تُطرح في داخل المجتمع أسئلةٌ مدارُها: هل هؤلاء الأمازيغ على صواب أم هم زائغون عن الطريق؟

المرحلة **الثانية** تمتدّ من ١٩٨٠ إلى ١٩٩١، وهي مرحلة الجَهْرِ بالقضية، وتمثّلتْ في عقد ندوات ولقاءات جماهيرية. ونَذْكر في هذا السياق أنّ السلطة العمومية أَقدمتْ سنة ١٩٨٢ على منعنا من تنظيم الدورة الثانية للجامعة الصيفية؛ فعَقَدْناها بشكل سريّ في البيوت، ومع ذلك لاحقت السلطاتُ الحركةَ الثقافيةَ باعتقال مناضليها ــ ومن بينهم الأستاذ علي صدقي أزايكو. وفي سنة ١٩٨٨ أقدمت الحركةُ الثقافيةُ الأمازيغية على تنظيم الدورة الثالثة للجامعة قصد جسّ نبض السلطة والأحزاب. وبالفعل تلقّيْنا إشارات بالإيجاب من جانب السلطة.

ولكنْ بعد سنة ١٩٨٨ تبيَّن للحركة الثقافية الأمازيغية عدمُ جدوى الاستمرار في نهج استراتيجية الأنشطة الجماهيرية المفتوحة. فقد ظهرتْ في تلك الفترة ستُّ جمعيات أمازيغية جديدة في شمال المغرب كما في جنوبه، فكان أنْ فكّرنا في تحضير ميثاق ثقافي نَعْرض فيه مطالبَنا. وفي هذا السياق أعدَّت «الجمعيةُ المغربيةُ للبحث والتبادل الثقافي» مسوّدةَ الميثاق، وتم في ١٩٩١/٨/٥ في مدينة أكادير التوقيعُ على «ميثاق أكادير حول الثقافة واللغة الأمازيغيتيْن.» وقد اعتُبرتْ هذه المرحلة البدايةَ الحقيقيةَ لخلق حركة ثقافية أمازيغية بشكل رسمي؛ وهو ما أتاح لنا إمكانيةَ وضع مطالبنا الحركية على مائدة الحكومة المغربية. ومن نتائج هذه الدينامية الجديدة قدومُ الدولة على امتحان شعبية الحركة الثقافية الأمازيغية. وبعد أن قامت السلطات المغربية سنة ١٩٩٤ في كلميمة باعتقال أعضاء من جمعية «تيلي» الأمازيغية، وتلتها سلسلةٌ من الاعتقالات الأخرى، دَخَلَ المغربُ في سيرورةٍ سياسيةٍ جديدة تمثَّلتْ في إصدار الملك عفوًا شاملاً عن المعتقلين السياسيين ومعتقلي الرأي. وفي خطاب ٢٠ غشت ١٩٩٤ دعا الملك الراحل إلى تدريس اللغة الأمازيغية، الأمرُ الذي أشَّرَ على تحولٍ في طريقة تعامل الدولة مع المطالب المشروعة للحركة الثقافية الأمازيغية،

بالرغم من أنّ هذه الدعـوة ظلت من دون تطبـيـق فــعلي طيلة سنوات حكم الملك الراحل.

المرحلة **الثالثة**، من ١٩٩٤ إلى اليوم، وقد دشنتها الحركةُ الثقافيةُ الأمازيغية بفتح حوار مع المجتمع المدني بكل أطيافه. وهكذا نظمت «الجمعية المغربية للبحث والتبادل الثقافي» سنةَ ١٩٩٦ حوارًا مع الأحزاب السياسية والتنظيمات والحركات العمَّالية والهيئات الثقافية والحركات الإسلامية بفصائلها الأربعة. وفي سنة ٢٠٠١ ألقى الملك محمد السادس خطابًا بعد تولِّيه مقاليدَ الحكم نصَّ فيه على تلبية جزء من مطالب الحركة الثقافية الأمازيغية، وأَتْبَعه بخطاب «أجدير» في ٢٠٠٢/١٠/١٧ وهو الخطاب الذي أقرَّ فيه الظهيرَ المؤسِّسَ للمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية.

٣ ـ مطالب الحركة الثقافية الأمازيغية. تتلخص المحاور الأساسية لمطالب الحركة الثقافية الأمازيغية في دسترة الأمازيغية. فالدستور المغربي لا ينصّ على الهوية الأمازيغية للدولة والمجتمع المغربيين، بل يكتفي بالإشارة إلى أنّ المغرب دولة إسلامية لغتُها الرسميةُ هي العربية، في حين أنّ مثل هذا التعريف لا يختصّ به المغربُ وحده وإنما تشترك معه فيه العديدُ من الدول الإسلامية والعربية، بحيث لا نجدنا أمام أيّ تنصيص مباشر وواضح على الهوية الوطنية **المغربية**. وتؤكّد الحركة الثقافية الأمازيغية أنّ مطالبها لا بدّ وأن تَرِدَ في إطار من الضمانات الدستورية الملزِمة للجميع. فلا يُعقل أن تكون لدينا لغةٌ غيرُ وطنية، وهي العربية، منصوصٌ عليها في الدستور بل تُعتبر هي اللغة الرسمية، في حين نجد لغتَنا الوطنيةَ الحقيقيةَ محرومة من هذا الحق الدستوري! وعليه، فإنّ الدعوة إلى دسترة اللغة الأمازيغية تقتضي في نظرنا شيئين: أولاً، الإعلان عن الهوية الوطنية للمغرب في مستوى الديباجة؛ وثانيًا، التنصيص على البعد الأمازيغي في الهوية الوطنية المغربية واعتباره **هو** الأساس، وذلك لسبب بسيط، وهو أنّ الأرض أمازيغيةٌ لا عربية، وأنّ الشعب أمازيغي وليس عربيًا بأيّ شكل من الأشكال!

وعندما ندعو إلى إعادة الاعتبار إلى الهوية الوطنية الأمازيغية للشعب المغربي، فإنّ ذلك لا يعني أننا نعادي اللغةَ والثقافةَ العربيتيْن، بل نحن نناضل ضد إقصاء البعد الوطني والحضاري للغة والثقافة الوطنيتين الحقيقيتين في المغرب. كما أنّنا نناضل من أجل إقرار اللغة الأمازيغية في المجال التعليمي والتربوي من منطلق تعليمها والتعلُّم بها؛ إذ لا يكفي أن نتعامل معها كأية لغة أجنبية نريد أن نتعرَّف عليها من باب الفضول المعرفي لا غير، وإنما الواجبُ الحضاريُّ يَفْرض علينا التعاملَ معها كموضوع للتدريس ووسيلةٍ له، بناءً على قاعدة تقاسم الأدوار بين اللغات المتعددة في المغرب.

كما تطالب الحركةُ الثقافيةُ الأمازيغية بإدماج اللغة الأمازيغية في الإعلام، إذ لا يعقل أن يظلّ المغربُ مخاصمًا لهويته وغيرَ معترف بها عبر إقصاء اللغة الأمازيغية من الإعلام. فأنت لا تَعْثر في التلفزيون المغربي، مثلاً، على ما يشير إلى الهوية اللغوية والثقافية للشعب المغربي؛ وحتى إنْ وَجَدْنا ـ عَرَضًا ـ برنامجًا مخصَّصًا للأمازيغية، فإنَّه يقدَّم إلينا باللغة العربية! كما تجد مَنْ يتكلم عن التراث الأمازيغي في برنامج تلفزي وكأنَّه يتحدث عن ثقافة غريبة عن الشعب المغربي.

وأخيرًا، تطالب الحركةُ بإدماج اللغة الأمازيغية في الإدارة العمومية والقضاءِ وكلِّ المصالح المرتبطة بالحياة العامة للمواطن المغربي. فمثلاً، هناك محاكماتٌ في المحاكم المغربية التي توجد في المناطق ذات الأغلبية الأمازيغية، تُجرى وتَصْدر عنها أحكامٌ، ولكنّ المتَّهَمَ الماثلَ أمامها لا يَفْهم ما يجري، بل لا يَفْهم حتى منطوقَ الحكم. وقد حدث في السنوات الأخيرة أن تجرَّأ بعضُ القضاة فقال لمتَّهم أمامه لا يَفْهم اللغة العربية: «سنعود بك إلى السجن حتى تتعلَّمَ اللغةَ العربيةَ فتفهَمَ ما يُقال لك.» ومعنى هذا أنّ هذا المتَّهم سيعاقَب مرتيْن: مرةً عن جريمة قد يكون ارتكبها، ومرةً ثانيةً عن جريمةِ جهلِهِ اللغةَ العربيةَ!

٤ ـ الأبعاد الفكرية والسياسية للعمل الأمازيغي والتحولات المرتقبة. تُعدّ المسألةُ الأمازيغية في المغرب القضيةَ الوحيدةَ التي تُسْهم في إحداثِ تحوُّل في المجتمع المغربي من الناحية

الفكرية والهوياتية، وهي ـ بالتالي ـ قادرة على إحداث تطور في بنية المجتمع وفي آليّات اشتغاله؛ في حين تبقى القضايا الأخرى، مع الإقرار بأهميّتها، مجردَ قضايا خلافية.

لا يُمْكن حصرُ الأمازيغية في كونها قضيةَ لغة، وإنّما هي حاملةٌ لأبعاد كبرى واستراتيجية، أهمُّها البعدُ الهوياتي. وعندما نشدِّد على البعد الهوياتي للطرح الأمازيغي، فإنما نَهْدف إلى إظهار أنّ الهوية المغربية منسجمة وموحّدة، على عكس مَنْ بات يروِّجَ مؤخَّرًا لأطروحة التعدد الهوياتي في المغرب. إنّ كلّ شخص يَحْمل ثقافةً ما، والتَحَقَ بأرض المغرب الأمازيغية، هو أمازيغي: فخير الدين، الذي يَكْتب بلغة فرنسية راقية، لا يعدو أن يكون كاتبًا أمازيغيًا؛ وأحمد التوفيق وعبد الكريم غلاب والمختار السوسي، الذين أَبْدعوا باللغة العربية، ليسوا عربًا بل أمازيغ تعرّبوا، كما الفارسي الذي تعرّب. فمن يقرأ لهؤلاء الكتّاب يحسّ أنّه إزاء إبداع ذي طعمٍ مخالفٍ لما يُنشر في الشرق العربي ـ وهذا الطعمُ هو بالذات البعدُ الهوياتي الأمازيغي الذي يتمتع به هؤلاء الكتّابُ.

أحمد أرحموش: أودّ أن أشكر الإخوةَ في مجلة الآداب على هذه الدعوة الكريمة. جميلٌ جدًا أن تهتمَّ بنا مجلةٌ من المجلات العربية في المشرق، لكنَّ الأهمَّ من ذلك أن تهتمَّ بنا كقضية وكإشكال مستقلّ له خصوصيتُه، لا كعنصرٍ مرتبطٍ بإشكالٍ بنيويٍّ تبحث له عن حل في المشرق ـ الظاهرُ أنّها لم تعثر عليه! وإذا كان الإخوة في المشرق العربي يريدون فعلاً معرفةَ شيء ما عن وضعية الأمازيغية في شمال إفريقيا، فمن الأفضل أن نتعامل مع الأشياء من الناحية العلمية، لا بمفاهيم عامة فلسفية لا يُمْكن فهمُها مثل مفهوم «الهوية.» لذلك أدعوكم إلى مناقشة إشكاليات بعيْنها مثل: إشكالية اللغة، والإشكالية الثقافية وعلاقتها بالديموقراطية، وإشكالية حقوق الإنسان... وفي هذا السياق نؤكِّد وجود إشكالات تتعلق بالأزمة التي يعيشها الإخوة في المشرق العربي في علاقتهم بموضوع القومية العربية. وهذا الإشكال مرتبطٌ في الأصل بهم، لا بما نعيشه **نحن** الآن في المغرب. إنّ الأزمة التي تعيشها القوميةُ العربيةُ اليوم مرتبطةٌ بطبيعة فكرها الاستبداديِّ النشأةِ والتطوّر والمآل. وما جاء في تقديم الأخ لبيض من مفاهيم عامة مثل ««الوطن العربي» و«الأمة العربية» يمثِّل الاستعمارَ الفكريَّ الذي تمارسه القوميةُ العربيةُ على الثقافات الأخرى. ومن الواجب مراجعةُ هذه المفاهيم باعتبارها دخيلةً على المغرب وعلى شمال إفريقيا، تَسْعى إلى إدماج الأمازيغ في مجالٍ غيرِ مجالهم. ولا يجب أن يُفهم من هذا أنّنا نعيش صراعًا بين الأمازيغ والعرب، أو بين اللغة والثقافة العربيتيْن واللغة والثقافة الأمازيغيتيْن، وإنما نناضل ضد السياسات الاستيعابية الإدماجية التي تُقصي جميعَ الأصول والقضايا الجوهرية في بلدنا. وهنا تَكْمن الإشارةُ إلى أزمة التاريخ الرسمي للمغرب: فهل يَعْكس حقيقةَ ما عاشته الإنسانيةُ في المغرب، كما في شمال إفريقيا، منذ أن وُجدتْ على هذه الأرض؟ الظاهر أنّ الحساسية التي تتعامل بها الجهاتُ الرسميةُ في المغرب وفي دول شمال إفريقيا الأخرى مع القضية الأمازيغية تَكْشف عن إرادة سياسية لا تَرْغب في أن توفِّر مجالاً أرحبَ لإقرار مبدإ المساواة والتنوع والاختلاف. فقد راكمت الحركةُ الأمازيغيةُ عبر العقود الأربعة الأخيرة، كما جاء في مداخلة الأستاذ إبراهيم أخياط، تجاربَ خصبةً لا يُسْتهان بها في إمكانية تطويرها: كأن تتحوّل من حركة ثقافية إلى حركة سياسية تبحث عن وجودها السياسي في منطقة شمال إفريقيا.

لبيض: استبعاد النقاش في مسألة الهوية يبدو لي وكأنّه إبطالٌ للعنصر الحيّ في القضية الأمازيغية. بل إنّ ما اقترحه الأخ أرحموش كموضوعات للتأمل لا تعدو أن تكون في جوهرها قضايا الهوية. ثم أليْس الموقفُ من القومية العربية محكومًا برؤيةٍ ومنطلقاتٍ هويّاتية؟

أرحموش: أولاً، أريد أن أبيِّن أنّنا لسنا بصدد بناء قومية أمازيغية كبديل أو منافس للقومية العربية؛ وإنّما نؤسس لمجتمع ديموقراطي متعدِّد ومتنوع، يسود فيه القانونُ، كما تسود فيه

لم «يستفد» المغاربةُ من المشرق العربي إلاّ الاستبداد، ومصالحُنا الاستراتيجية ليست معه بل مع الغرب

مقوِّماتُ كافة اللغات والثقافات المتواجدة في المغرب في إطار مشروع التصالح مع الذات الحضارية. ثانيًا، عندما نتحدث عن وجود إنسان عربي في المغرب، فلا بدّ أن نَطرح السؤاليْن التاليين: مَنْ هو الإنسان العربي؟ ومن هو الإنسان الأمازيغي؟ في اعتقادي أنّ هذيْن السؤاليْن يمثّلان جوهرَ المشكل المطروح علينا اليوم، وأربأ بنفسي أن أَدْخل في نقاشات عن العِرْق ـ مع أنّ القومية العربية أُسِّستْ على العِرْق وتريد أن تؤسِّس أوطانًا على العِرق! وشخصيًا، أقف موقفًا سلبيًا من كل الثقافات التي ترنو إلى أن تؤسِّس مشروعَها على الأبعاد العِرقية أوالإثنية، لأنَّها آنئذ تتحوّل إلى مشاريع لتوليد التطرُّف والأصولية. والثقافة الأمازيغية ضد الفكر الواحد الذي راكمتْه ثقافةُ أحزاب البعث في المشرق، والناصرية في مصر، والقذّافية في ليبيا. فهذه التجارب مارستْ سلوكاتِ الإبادة ضد المكوِّنات الثقافية واللغوية لشعوبها. إنّ أكرادَ العراق وسوريا، وأقباطَ مصر، وأمازيغَ شمال إفريقيا وجنوبيّ السودان، وطوارقَ جنوب الجزائر، نماذجُ تَطْرح قضاياها العميقة على هذا الفكر، وتعرِّي حقيقةَ معضلاته البنيوية التي تواجهه، وتَطْرح عليه تحدّياتٍ كبرى، منها ضرورةُ إعادة النظر في مقوِّمات إيديولوجيته المنهزمة والفاشلة والقائمة على الفكر العربي القومي الوحدوي والشمولي. ويجب على هذا الفكر أن يتعلم من تجارب الأمم الأخرى، وأَقربُها إليه تجاربُ الدول الأوروبية التي لم تتوحّد على أساس اللغة أو الثقافة أو الدين. إنّ العالَمَ يتطور في إطار الزحف القويّ للعولمة، التي يُمْكنها أن تدمِّر العربيةَ والأمازيغيةَ على حدّ سواء. وإنّ العالم يعيش اليوم تقدمًا هائلاً في مجال حقوق الإنسان، وعلينا أن نستوعب جيدًا مضامينَ هذا التطور، وأن نَعْمل من أجل الحضور النابه والفعّال لكافة اللغات والثقافات ـ سواء في المشرق العربي أو في شمال إفريقيا. وهذا الاتجاه وحده هو الذي سيبيِّن لنا، نحن المغاربةَ، مع مَنْ ستكون مصلحتنا... وإنْ كنَّا جازمين بأنّ مصالحنا الاستراتيجية ليست مع المشرق العربي وإنما مع الغرب! وهذه حقيقة يجب أن نعترف بها؛ وإلاّ فَقُلْ لي ماذا استفدنا من المشرق العربي منذ أن ابتُلِينا به إلى اليوم، اللهم إلاّ ما صدَّرَه لنا من نظم استبدادية وديكتاتورية؟! إنّ اقتصادنا في المغرب مرتبط بأوروبا، ووجودَنا الحضاري مرتبطٌ بإفريقيا ولم يرتبط في أية مرحلة من المراحل التاريخية بالمشرق ـ إلاّ ما أرادوه أن يكون قهرًا واستلابًا للحقّ في وجود الشخصية الوطنية المغربية. وأقولُها وأكرِّرها: ليس لنا ما «نستفيده» من المشرق العربي سوى ذلك الفكر الاستبدادي الأصولي والسلفي. ولذا تجب الدعوةُ إلى تدشين مرحلة جديدة من أجل إعادة الاعتبار للقيم الذاتية للثقافة الوطنية الأصلية. ومن هنا أقول للأخ لبيض: كفانا من تعتيم الحديث عن الإشكالية الهوياتية، وعن الوجود العربي في المغرب، لأنَّنا ـ والحمد لله ـ لم نعثرْ على وجود عربي في المغرب. وكما قال ابنُ خلدون: «مَنْ سَكَنَ بلاد البربر فهو بربريّ.» ومَنْ أنكر ذلك، فعليه الإثباتُ، أو فَلْيغادرْ إلى شرقه العزيز!

مصطفى المسعودي: بدوري، لا يسعني إلاّ أن أشكر المنبرَ الثقافي الرائد، مجلة الآداب، على هذه المبادرة الطيبة. هذه المجلة تمثِّل لجيلنا، ولأجيال عديدة في المغرب، مدرسةً وجسرًا هامًا في الربط الحضاري بين المشرق والمغرب العربييْن. وفي البداية أودّ أن أشير إلى أنّني أتحدث في هذه الندوة العلمية انطلاقًا من حساسية إسلامية مغربية ممثَّلةٍ في تيار «البديل الحضاري» المغربي. وأستمحيكم عذرًا إذا اختلفتُ مع الإخوة الحاضرين في القراءة التي قدَّمها الأستاذ إبراهيم أخياط؛ فهي قراءة جمعوية جوّانية تختزل الموضوعَ الأمازيغي في أبعاد سياسية واقتصادية وثقافية. وبهذا المعنى أتساءل، كإنسان مغربي أمازيغي، وأنتمي إلى منطقة الريف الأمازيغي، وإلى تيار إسلامي تنصهر فيه أعراقٌ متعددةٌ من زنجية وأمازيغية وعربية وإفريقية: «أين أجد ذاتي داخل هذا التصنيف الجمعوي الذي قدَّمه الأستاذ أخياط؟» إنّي أعتقد أنّه من الصعب اختزال القضية الأمازيغية في أبعاد محلية داخلية، ثقافيةً كانت أو اجتماعيةً أو اقتصاديةً أو سياسيةً. فالموضوع يحيل صراحةً

على تفجر الهوية في المغرب، مثلُه في ذلك مثلُ العديد من الدول العربية التي بدأتْ تُطْرح فيها إشكالياتُ الهويات الثقافية واللغوية بحدة، الأمر الذي يعرِّض بنياتِها السياسيةَ والثقافيةَ للتفجّر والتّفكك. ويمكن إرجاعُ سبب بروز هذه الظاهرة إلى السياسات الفاشلة للدولة الوطنية العربية بعد الاستقلالات الوطنية. والذي حدث في المغرب تحديدًا هو أنّ النخبة التي سيطرتْ على المجالين الثقافي والسياسي هي نخبة متعالية في طبيعتها، وعمدتْ ـ بَدَل الإنصات بنباهةٍ وإمعانٍ إلى نبض الواقع المغربي وإلى نبض شرائح المجتمع المغربي في الأطلس والريف ـ إلى الارتماء في أحضان الإيديولوجيا المستورَدة وإلى محاولة إسقاطها على الواقع. فكانت النتيجة أن هُمِّشَ الإنسانُ المغربي في قُوتِهِ اليومي، وفي لسانه، وفي دينه. فكان من الطبيعي أن تختنق داخل هذا النوع من الحكم كلُّ الأسئلة الكبرى، إذ لم يبق أمام السلطة إلاّ السؤالُ الرئيسي الوحيد والمشروع، وهو: «كيف يحمي النظامُ السياسي القائمُ نفسَه؟» ونعتقد أنّنا اليوم نعيش حالةَ نهوضٍ للعديد من روافد الثقافة المهمَّشة في المغرب، وأنّ المغاربة كانوا على استعداد لتهيئة المجال المجتمعي والمؤسساتي للإجابة عن التعدد اللهجي واللغوي والثقافي داخل المغرب، ولكنّ غياب المجتمع الديموقراطي بسبب غياب الحكم الديموقراطي هو الذي أدّى إلى «تهريب» الموضوع الأمازيغي. ولهذا، فإنّ الموضوع الأمازيغي تم ملؤه بحمولة غير طبيعية ترتكز على طرح الموضوع في تناقضٍ مع كلّ ما هو عربي. وبالنسبة إليّ شخصيًا، فإنّ هذا المشكل مفتعلٌ في المغرب. فأنا مغربي يجري في دمي العديدُ من الأعراق، إلاّ أنّ ذلك لم يَطْرح عليّ أيَّ مشكل. وأعترف بأنّني أَمْلك امتدادًا لما قبل الإسلام، غير أنّني أعترف كذلك بأنّ الإسلام هو الذي شكّل ولادتي الحضارية الجديدة. فقد استطاع المغاربة منذ اعتناقهم الإسلامَ أن يشكّلوا وجودًا حضاريًا جديدًا وقويًا، ولسنا نحن اليوم سوى ثمرةٍ لهذا الوجود: الوجود الحضاري للدولة المرابطية والموحّدية والمرينية ـ وهي، بالمناسبة، دولٌ أمازيغيةُ الأصل إلاّ أنّها كانت في عمقها مغربيةً عربيةً وإسلاميةً ـ ولم يكن يُطْرح ساعتَها موضوعُ الهوية بالشكل الإثني والعرقي الضيق الذي يُطْرح به اليوم. وكما سبق أن أشرتُ، فقد تمّ تهريبُ موضوع الأمازيغية وتدويلُه وتلغيمُه بحمولة حضارية وثقافية تتناقض مع ما هو حضاري عربي إسلامي، وتَسْترجع أصداء من الذاكرة الاستعمارية الفرنسية والإسبانية. فعندما نعود إلى ڤيكتور ربيكي، نجده يقول: «هؤلاء السكّان [يقصد الأمازيغ] يُمْكنهم، بل يجب عليهم في وقت قصير، أن يصبحوا فرنسيين لغةً وروحًا.» كذلك يشير المقيمُ العامُّ الفرنسي في المغرب زمنَ الاحتلال، الجنرال ليوطي، في دوريته إلى رؤساء المناطق المدنية في العام ١٩٢٥، إذ يقول: «إنّ العربية عاملٌ من عوامل نشر الإسلام؛ وإنّ هذه اللغة يتمّ تعلُّمُها بواسطة القرآن، بينما تقتضي مصلحتُنا أن تتطور البربريةُ **خارج** إطار الإسلام. ومن الناحية اللغوية، علينا أن نَعْمل على الانتقالِ مباشرةً من البربرية إلى الفرنسية.» وفي كتاب لپول مارتي، نقرأ ما يلي: «إنّ كلّ تعلُّم بالعربية، وإنّ كلّ تدخُّلٍ من الفقيه، وكلَّ وجودٍ إسلامي، سوف يتم إبعادُه بكلّ قوة.»

نحن، إذن، أمام هذه الوثائق نَكْشف عن حقيقة السياسة الاستعمارية تجاه البربر. ولا يزايدنَّ علينا أحدٌ فيقول إنّ الأمازيغية موضوع معزول ومستقل؛ فالمسألة الأمازيغية لم تُطْرح بهذه الصيغة إلاّ لتَدْخل في إطار نسقٍ عوليٍّ استعماري. وإلاّ فكيف نفسِّر الحضورَ القويَّ لفرنسا هذه الأيام وقَبْلَها في الموضوع الأمازيغي؟ لقد تبنّت فرنسا المسألةَ الأمازيغيةَ منذ عام ١٩٣٣؛ بل وقبل هذا التاريخ أَسست الإدارةُ الاستعماريةُ الفرنسيةُ معهدَ الدراسات البربرية في سنة ١٩١٥؛ كما أَقْدمتْ على تأسيس معاهد لدراسة اللهجات الأمازيغية في الرباط سنة ١٩٢٩؛ وفي سنة ١٩٦٧ تم تأسيسُ الأكاديمية البربرية في جامعة باريس؛ وفي سنة ١٩٩٥ انعقد في جنوب إفريقيا المركزُ الدوليُّ والمؤتمرُ الأمازيغيُّ الأول. ولا أَفْهم شخصيًا كيف تَعْتمد فرنسا اليومَ تدريسَ الأمازيغية في مدارسها، وهي من أكثر الدول تزمتًا في التعامل مع اللغات الأجنبية؟! هذه المعطيات

ليست وليدةَ المصادفة والعفوية، خصوصًا عندما تَصْدر عن فرنسا بإرثها الاستعماري وبنظرتها الإمبريالية إلى شعوب المستعمَرات. لذلك كفانا ترديد مزحة أنّ فرنسا صديقةُ المغرب الاستراتيجية!

ثم إنّنا عندما نتحدث اليوم عن الأمازيغية نتساءل: أيّة أمازيغيةٍ نَقْصد؟ فالأمازيغية لغاتٌ متعددة ومتنوعة، إلى حدّ الاختلاف الكلي. فأنا مثلاً أمازيغي من منطقة الريف وأتكلم الأمازيغية الريفية، ويَصْعب عليَّ التواصلُ مع الأستاذ أخياط الذي يتكلم أمازيغيةَ تاشلحيت ـ وهو ما يعني أنّ بين اللهجات الأمازيغية فروقًا عديدةً وجوهريةً لا يُمْكن اختزالُها في اختلافات صوتية أو فونولوجية. وتجب الإشارة أيضًا إلى أنّ الحديث اليوم داخل الصف الأمازيغي ينقسم إلى تيارات: فهناك تيار (أَنْتمي إليه) يتحدث عن الأمازيغية من داخل المنظومة العربية الإسلامية، ويؤمن بأنّه لا يُمْكن تفعيلُ الأمازيغية ـ كعامل من عوامل بناء المجتمع المغربي الديموقراطي القوي ـ إلاّ ضمن الانسجام الكامل والشامل مع المشرق العربي؛ وهذا عكس ما ذهب إليه الأستاذ أرحموش. وهناك تيار آخر يتحرك من خارج هذا الفضاء ويتناقض مع المنظومة العربية الإسلامية؛ وقد عبَّر عنه الأستاذ أرحموش في مداخلته. وبين هذيْن التيارين اختلافاتٌ جوهريةٌ أخرى: فالتيار الإسلامي والقومي، مثلاً، يرى أنّ الخط الحقيقي الذي ينبغي أن نتفاعل معه داخل الحركة الأمازيغية واللهجات الأمازيغية هو الخط العربي؛ وفي المقابل يرى التيّارُ الآخَرُ أنّ الخط اللاتيني هو الأساس، أو خط تيفناغ الذي أعتبره خطًّا آشوريًّا.

في ختام مداخلتي أقول إنّنا في المغرب، وفي العالمين العربي والإسلامي، نوجد بين خياريْن لا ثالث لهما: إمّا أن ننخرط في بناء المجتمع الديموقراطي بالاستناد إلى خصائص وجودنا الحضاري العربي الإسلامي، مستلهمين الزخمَ الثقافيَّ لهذه الحضارة ولإنجازاتها التاريخية، مضيفين إليها اجتهاداتِ مرحلتنا التاريخية الحالية؛ وإمّا أن نرتمي في أحضان الغرب، مردِّدين القطيعةَ مع وجودنا الحضاري العربي الإسلامي، وإذ ذاك فلنتحملْ كلَّ المسؤوليات التاريخية عمّا سنجنيه على شعوبنا من تدمير حضاري ومن مسخ للشخصية الحضارية. وأشدُّ ما نخافه هو أن تكون الغايةُ مِن الحضور السرطاني لفرنسا (بأجهزتها الضخمة) في موضوع الأمازيغية هي جعل القضية الأمازيغية خصمًا عنيدًا للبعد الحضاري العربي الإسلامي للمغرب. وإلاّ فكيف نفسِّر هذا التنابزَ الحادَّ بين عبد السلام ياسين والأستاذ محمد عصيد؟ إنّ الدخول في مثل هذا النوع من الصراع من شأنه أن يضيِّع علينا الوقتَ والفُرَصَ. إشكاليتُنا، نحن المغاربةَ اليوم، ليست التمزيغَ ولا التعريبَ، لأنّنا نَعْلم أنّ المستفيد الأول هي اللغةُ الفرنسية. وإنّما إشكاليتنا هي التمرينُ على الديموقراطية وعلى بناء ديموقراطي يجيب على كل حاجات الإنسان المغربي، وهو الكفيل وحده بحلّ خلافاتنا.

أمينة بنت الشيخ: تنمرت [شكرًا بالأمازيغية]. أودّ أن أسجِّل ملاحظةً على ما ورد في تقديم الأخ لبيض بخصوص محاولة مجلة الآداب مقاربةَ واقع القومية العربية من منظورٍ جديدٍ خاضعٍ لإرغامات التحوُّلات العاصفة بالكيانات الوطنية والجهويةِ والقاريَّة بفعل العولمة وسيادة منطق السوق المفتوحة والتنافسية. ففي رأيي أنّ هذا الاتجاه يدلّ دلالةً قاطعةً على أنّ القومية العربية تعيش أزمةً، بل وإفلاسًا في سوق الإيديولوجيا، وها هي مرةً أخرى تسعى إلى تدارك الموقف بإعادة النظر في طبيعة المفهوم وفي صيغ اشتغاله وتداوله! إلاّ أنّ ما يجب أن يفهمه الأخ لبيض، ومعه مجلةُ الآداب وكلُّ الداعين إلى تجديد الخطاب القومي العربي، هو أنّ القضية العربية ـ بانشغالاتها وأزماتِها ومدارج البحث عن حلولٍ لها ـ لا تهمُّنا ولا تعنينا نحن في المغرب، لسَببٍ بسيطٍ هو أنّنا لا نؤْمن بهذا الخطاب ولا يمثِّلنا. فنحن أمازيغ مغاربة ننتمي إلى رقعة جغرافية أمازيغية قحّة منذ الأزل، وستظلّ على عهدها ووعدها إلى أن يَرِثَ اللّهُ الأرضَ وما عليها. لذلك فإنّنا اليوم، في نضالاتنا وفي مشاريعنا الحضارية والثقافية والتنموية، نحتكم إلى منطقٍ مغايرٍ لما دَرَجَتْ عليه القوميةُ العربيةُ منذ عهود.

وأريد أن أقول للقارئ العربي، من خلال مجلة الآداب، إنّ العديد من الأمور قد لا يُدركها في سياق محاولته فهمَ أبعاد القضية الأمازيغية إنْ قُدِّمتْ إليه مغلَّفةً برؤيةٍ عربيةٍ ذاتِ أبعاد عرقية وإيديولوجية. لذلك، فإنّ على المثقف العربي والإنسان العربي العادي والمواطن العربي المهتم أن يدركوا أنّ هناك فصلاً قاطعًا بين انشغالات قضية القومية العربية وانشغالات القضية الأمازيغية، وليس هناك أدنى واصل يصل بين القضيتين، إلاّ ما يُمْكن الاعترافُ به اليوم من أنّ القضية العربية اغتَصَبَتْ لسنوات ـ بل لقرون ـ القضيةَ الأمازيغيةَ في الوطن الأمازيغي! ولئن كانت القوميةُ العربيةُ تحسّ بإخفاقها التاريخي وبفشل مشروعها الوحدوي، فإنّها مطالبةٌ بإعادة النظر في اغتصابها للقضية الأمازيغية ومحاولتها إلباسَ اللبوس العربي الفضفاض لأناس ليسوا عربًا وما كان لهم أن يكونوا كذلك إلا تحت قهر الإيديولوجيا وتعسُّف الأنظمة...

لبيض (مقاطعًا): أستسمح الأخت أمينة على المقاطعة. إذ لم تَرِدْ في سياق تقديمي أيةُ إشارة إلى فشل فكرة القومية العربية. فتشبُّثُنا بفكرة القومية أضحى اليوم أكثرَ إلزامًا من أيِّ وقت مضى، لا لشيء إلاّ لأنّ فكرة القومية العربية نضالٌ ساهمتْ فيه الشعوبُ العربيةُ قبل الاحتلال وإبّانه وبعده. وأن تَفْشل اليومَ تجربةُ حكمٍ ارتأت أن تأخذ مفاهيمَ القومية العربية أساسًا لشرعيتها السياسية، فذلك لا يعني أنّ ذلك الحكم يمثِّل حقيقةَ المشروع الوحدوي العربي؛ وما كان له ذلك، لأنّ القومية العربية ليست نظامًا للحكم بل رؤيةٌ حضاريةٌ شاملةٌ وُلِدتْ من رحم المجتمعات العربية وتربَّتْ في أكناف الأجيال العربية المتلاحقة. لنتفقْ بدءًا على أنّ فكرة القومية العربية لم تفشل لأنّها ـ ببساطة ـ هويةٌ حضاريةٌ وثقافيةٌ وليست إيديولوجيا، ولم نسمعْ في التاريخ القديم أو الحديث أنّ هويةً حضارية فشلتْ. قد تصاب بالوهن، وقد تتأثر بتحولات المحيط وتصاريف الزمن، فتكون مدعوَّةً إلى إعادة التفكير في وجودها ومصيرها وفقًا لمتطلّبات العصر وإكراهات الزمن ـ وهذا شأنُ القومية العربية التي عانت هي بالذات من عسف الأنظمة التي تذرَّعتْ بها لتذيق الشعوبَ مرارةَ الظلم. بودّي أن أسأل الأخت أمينة السؤال التالي: إذا ما قُدِّر غدًا للنضال القومي الأمازيغي أن يَفْشل بعد أن تكون بعضُ الجهات السياسية قد تبنَّته، فهل يؤدّي ذلك إلى فشل الفكرة القومية الأمازيغية؟ أليس الفاصلُ بين الفكر والممارسة في هذا السياق بارزًا وواضحًا؟

أمينة بنت الشيخ: أقول وأكرِّر إنّ فشل القومية العربية سببُه انتماؤها إلى أناس غير عرب. ففي المغرب هناك قوميون عرب ليسوا عربًا أصلاً؛ كما إنّ في لبنان عروبيين مستعربين (فهل الموارنة عرب؟!). الناس، يا أخ عبد الحق، بدأوا يعون إشكالاتهم الوجودية والحضارية ولم تعد تغريهم الخطاباتُ الرنّانةُ ولا الأحلامُ الورديةُ التي تَبْرع القوميةُ العربيةُ في نسج خيوطها العنكبوتية. الناس بدأوا يدركون القهرَ الممارَسَ عليهم باسم القومية العربية، وهم اليوم يناضلون من أجل الخروج من تحت معطف هذه الإيديولوجيا المهزومة شرَّ هزيمة من أجل إثبات هويتهم الحقيقية. والهوية الحقيقية في المغرب هي الهوية الأمازيغية لا الهوية العربية، وهذا ما نناضل من أجل دسترته والاعترافِ به. وهذه القومية العربية التي تُجْهد نفسَها اليوم من أجل إعادة النظر في مسلَّماتها لا تعدو إلاّ أن تسعى مرةً أخرى إلى السطو على الهويّات الحقيقية للشعوب المقهورة وإلحاقِها بها كأجزاء ودوائر صغرى. ألا ترون أنّها الاستراتيجيةُ الاستيعابيةُ ذاتُها، ولكنْ بتلوينات جديدة أَمْلَتْها موضةُ العصر الداعية إلى إبراز الهويات الحقيقية؟!

قيل فيما سبق إنّه لا بدّ من إعادة بناء الهوية الوطنية، وأنا أسأل: على أيِّ أساس أو أية شرعية تستند هذه الدعوةُ؟ ثم أليس إجحافًا في حقّ الشخصية الوطنية المغربية أن ندعوها اليوم إلى إعادة بناء ذاتها، وهي الممتدّةُ في عمق التاريخ الإنساني والشاهدة على حضارات تمتدّ آلاف السنين؟ إنّ الذي يحتاج إلى إعادة بناء الذات وتحديدِ ملامح الشخصية هي الهويات **الدخيلة** على المغرب، وفي مقدمتها الهويةُ العربية!

مـا نَلْمـسـه في الجـدال الدائر حـول مـوضـوع الأمـازيغـيـة هو غـيـاب الـثـقـافـة والحـضـارة الأمـازيغيتيْن!

ما نحتاجه حقيقةً في المغرب هو إعادةُ كتابة تاريخ هذا البلد، لأنّ التاريخ الرسمي الذي يلقَّن في المدارس والجامعات ويُتداوَلُ في الإعلام هو تاريخٌ مزوَّرٌ ومشوَّه. ومن المبادرات الرامية إلى مسخ الهوية الوطنية، وإزالةِ أيّ آثارٍ دالّةٍ عليها، ما كانت ستُقْدِم عليه الجامعةُ المغربيةُ في السنة الدراسية الجامعية السابقة من حذف لمادة التاريخ القديم من مقرَّرات شعبة التاريخ في كليَّة الآداب. إذن ما نحتاج إليه في المغرب هو إثباتُ ركائز هويتها الوطنية، وذلك عبر مجموعة من الوسائط التي أشار إليها الأستاذ أخياط فيما سبق، وأعني: الإعلام والتعليم والإدارة والقضاء. لكنّ هذه الوسائط لا تكتسب أهميةً إلاّ بعد أن تتم دسترةُ الأمازيغية والاعترافُ بها هويةً وحيدةً ورسميةً للمغرب.

لبيض: منذ مدة وأنا أتابع الجدلَ الدائرَ حول الحركة الأمازيغية في المغرب، فألاحظ أنّ الغائب الأكبر في كل الجدل الدائر حول الأمازيغية هي الأمازيغية ذاتُها ـ كثقافةٍ وكأسلوبٍ للتعبير الفني والأدبي والرمزي. وحتى لا نَسْقط ندوتُنا في المطبّ ذاته، فإننا دعونا الدكتور عمر أمرير، باعتباره مختصًا في الثقافة الأمازيغية، وبالتحديد في الشعر الأمازيغي، إلى أن يقرّب القارئَ العربيَّ من بعض خصائص الثقافة الأمازيغية ومميِّزاتها.

عمر أمرير: مناقشة المسألة الأمازيغية في هذه الفترة بالذات تكتسي راهنيةً ملحوظةً وأهميةً قصوى، لأنَّ من شأن ذلك أن يفتح الطريقَ أمام معرفة مستبطنة بأمور عديدة أهمُّها روحُ المسألةِ موضوع الجدل. لكنَّ ما نَلْمسه في الجدال الدائر حول موضوع الأمازيغية، وكما أشار إلى ذلك الأستاذ لبيض، هو غياب الثقافة والحضارة الأمازيغيتين! لذلك حرصتُ على أن تكون مساهمتي في هذه الندوة عبارةً عن تقديم شهادة عن الثقافة الأمازيغية؛ وهذه الشهادة يستفيد منها مَنْ يدافع عن الأمازيغية أو مَنْ يناهضها لأنها تضع أمامهما معًا آليّاتِ فهم طبيعة الثقافة الأمازيغية وخصائصها.

سأقتصر في شهادتي اليوم على الفترة التاريخية للمغرب قبل عام ١٩٥٦، أيْ قبل الاستقلال، لأبيِّن مظاهرَ الحضارة والفكر الأمازيغييْن، مبْرزًا في الآن ذاتِه خصوصيةَ هذه الثقافة ومميِّزاتها من خلال التركيز على مكوّن الشعر في الأدب الأمازيغي. ومن شأن هذه الإطلالة على التراث الشعري الأمازيغي أن تُسْعف القارئَ العربي على تلمّس الظواهر الثقافية والإبداعية في الثقافة الأمازيغية، كما أنَّها تستطيع أن تجسِّد كلَّ ما جاء في حديث الإخوة أخياط وأرحموش وأمينة عن مسألة الهوية الأمازيغية.

هناك مجموعة من الأساسيات ستتحكم في حديثي عن الإبداع الأمازيغي، وبخاصة الشعر. ومن أهمّها التنبيهُ إلى تجنُّب إسقاط أيّ نموذج شعري سابق قد يكون عَلِقَ بذهن القارئ العربي على قراءة الشعر الأمازيغي؛ ذلك لأنّ الشعر الأمازيغي يتميَّز بكيانه المستقلّ وخصوصياته التي تجعل منه كيانًا مغايرًا في بنائه وفي اشتغال صوره الشعرية عن القصيدة العربية. فإذا كانت أرقى مستويات بناء القصيدة العربية القديمة والحديثة معًا هي البلاغة، وبخاصةٍ أبوابُ التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية، فإنّ بناء الصورة الشعرية في القصيدة الأمازيغية لا يقوم على هذه العناصر، وإنما يستند إلى البناء الرمزي. وعندما نقول هنا اللغة الرمزية فإنّنا لا نعني المذهبَ الرمزيّ كما تشكّل وتطوّر في الغرب؛ ذلك لأنّ البناء الرمزي في القصيدة الأمازيغية هو وليد الذهنية **المغربية**، وبخاصة الذهنية الثقافية العالمة. لهذا أَمْكننا تفريعُ اللغة الأمازيغية إلى فرعين: لغة أمازيغية متداولَة، وتتوزّع اليوم إلى لهجات أو لغات متنوعة؛ ولغة أمازيغية شعرية عالمة راقية تقوم على الرمز، وهذه اللغة هي التي تمثِّل ما يمكن أن نصطلح عليه بـ «الذهنية المغربية.» وللتدليل على ذلك نأخذ المثالَ الشعري الأمازيغي التالي: «ولكلنا رازال بريت تازالت مدن تنقن تمزكيدا تاوان الإمام.» فإذا ترجمنا هذا الكلامَ الشعريّ الأمازيغي حرفيًا إلى اللغة العربية فإنّنا سنُفْقده كلَّ دلالاته. فالمعنى الحرفي هو: «نام حتى الضحى، قام ليصلّي، الناس أغلقوا المسجد، والإمام ذهب.» إذا

اكتفينا بهذا المستوى الحرفي من الترجمة، فإنّنا نلاحظ أنّه لا يتضمّن تشبيهات ولا استعارات، وإنما هو مليء بالرموز، وهذا ما يجعل ترجمتَه متعذرةً. فكلمة «لكلنا رازال» لها أبعاد إيحائية تتمحور حول شخص لم يتزوج وظلّ يتصابى حتى أدركه المشيبُ، فراح يحب امرأةً جميلة، ولما ذهب إلى خطبتها من أهلها رفضوا أن يزوِّجوها له لأنه كبر في السنّ. و«تمزكيدا» هنا تعني عادةَ «صقرن» أيْ موسم الخطوبة عند الأمازيغ، والذي يمتدّ من شهر أكتوبر إلى شهر يناير. وفي هذه الفترة يترك الأمازيغُ لبناتهم عندما يبلغن سنَّ الزواج حريةَ الحوار الشعري في مجالس الشباب؛ وفي هذه المجالس تكون البنتُ قد اختارت حبيبَها وتعاقَدا على الزواج، ولا يحقّ لها بعد ذلك المشاركة في مجالس «صقرن.»

وعادةً ما يحدد الأمازيغ سنَّ البلوغ ليس اعتمادًا على العلامات البيولوجية، وإنما على قدرة الطفل على فهم المعاني الرمزية في الشعر. وكثيرًا ما يَخْتبر الأمازيغُ أبناءهم باللغة الرمزية ليحدِّدوا سنَّ البلوغ لديهم. وأعطيكم مثالاً: امرأة قالت لزوجها أمام ابنيهما: «إذا مررتَ من أمام المسجد فإيَّاك أن تقف وتتأمل الصومعة.» وعندما عاد الطفل إلى أمه قال لها إنّ أباه مرَّ من أمام المسجد ووقف ليتأمل الصومعة. لكنَّ المعنى الرمزي للكلام ليس ما فهمه الطفل، إنما هو: إذا مرّ الرجل من الحيّ الذي تسكنه المرأةُ التي كان يحبّها قبل زواجه، فلا يقفنَّ أمام بيتها لئلاّ يراها وتراه!

إشارة ثانية بخصوص الفروق بين الشعر الأمازيغي والشعر العربي، وتتمثل في الأغراض الشعرية في كليْهما. إذ يجب ألاّ نُسْقط الأغراضَ الشعريةَ في الشعر العربي، أي المدح والهجاء والرثاء والفخر، على القصيدة الأمازيغية. صحيح أنّ هذه الأغراض كانت متضمَّنةً في بعض مضامين القصيدة الشعرية الأمازيغية، إلاّ أنّ التركيب العامّ لهذه القصيدة يقوم على مستويات غرضية مخالفة. فالشعر الأمازيغي ينقسم إلى ثلاثة أقسام أساسية: الشعر التعليمي؛ والشعر الفني؛ والشعر الطقوسي، أي الشعر الذي يقال في الحفلات والأعراس، ويُعدّ ضروريًا في أيّ حفل، وبدونه يظلّ الحفلُ مجردَ فوضى ولا يَعْرف الأهلُ كيف ينظِّمون خروجَ العروس في ليلة العرس.

ولكي يصير الإنسان الأمازيغي شاعرًا فلا بدَّ له من أن يمرّ من مجموعة من الطقوس، وأهمُّها طقوسُ العبور. إذ لا يكفي أن يكون للشاعر صوتٌ جميلٌ وقوةُ شخصيةٍ ليصير شاعرًا، بل عليه إحضارُ ذبيحة لتُذْبح في الضريح أو المغارة، وينام الشاعر بعدها ثلاثَ ليالٍ على الأقل حتى يَحْلم بأنّه يأكل أو يتقيَّأ شيئًا. فإذا أتته هذه الرؤيا صار شاعرًا؛ أما إذا أتاه في الحلم رجلٌ يصيح فيه بأن يذهب أو يستيقظ، فمعنى ذلك أنّه لن يصير شاعرًا أبدًا.

يعتقد كثيرون أنَّ الشعر الأمازيغي لا مصادرَ له، وهذه في نظرنا مغالطة كبرى. فالشعر الأمازيغي له مصادر مهمة جدًا. للأسف لم تصلنا مصادرُ ما قبل الإسلام المكتوبة، بالرغم من أنَّه وصلتنا أخبارٌ عن الأدب الأمازيغي ما قبل الإسلام؛ فقد كانت للغة الأمازيغية ملاحُمها، وما نزال حتى اليوم نتوفر على نصوص تؤكد أنّ الملاحم الأمازيغية كانت قويةً ومزدهرةً، الأمرُ الذي يدلّ على وجود حضارة أمازيغية ضاربة في عمق التاريخ. ومن مصادر الشعر الأمازيغي نَذْكر ما يلي:

١ ـ الذاكرة الشعبية: يتمتع الإنسان الأمازيغي بذاكرة قوية في حفظ الشعر. وهذا لا يعدّ امتيازًا بيولوجيًا بقدْرِ ما يشكّل ضرورةً تَفْرضها شروطُ الحياة؛ ذلك لأنّ ما يحفظهُ الأمازيغي من أشعار إنّما يقوم بالاستشهاد بها وبالتفكير بها. فالشعر الأمازيغي هو شعر الرموز والحكم، ولذلك كان جزءًا من حياة الإنسان الأمازيغي.

٢ ـ المخطوطات: فقد وصلتْنا مجموعةٌ من المخطوطات حول الشعر الأمازيغي، منها ما هو مبدَعٌ ومنها ما هو مترجَم. ويمكننا أن نَذْكر في هذا الصدد ما وصلنا عن المهدي بن تومرت، مؤسِّس الدولة الموحدية وواحدٍ من أكبر الشعراء الأمازيغ. أما في الترجمة فقد تُرجم كتابُ بن عاشر في الفقه. ووردنا أيضًا ترجمةُ كتب الطب والطب الشعبي والفلك والمنازل الفلاحية، وغيرُها كثير.

٣ ـ المصادر المكتوبة : وهي مصادر وصلتْنا بلغات مختلفة، وأهمها اللغة الألمانية. ففي سنة ١٨٩٥ صدر كتاب لـ «هونشوم» عن الشعر الأمازيغي وأعلامه. وبالإنجليزية صدر كتاب لـ «جونسون» عن أغاني سيدي حمو، مجموعًا ومحقَّقًا ومحلَّلاً. أما باللغة الفرنسية فقد أُلِّف عن الشعر الأمازيغي الشيءُ الكثير.

٤ ـ الأسطوانات السمعية: يمكن القول إنّ الأمازيغية تمتلك تراثًا ضخمًا من الأسطوانات التي تحتاج إلى رعاية الدولة وهيئات المجتمع المدني حتى لا تضيع كما ضاعت مصادرُ أخرى. فالأسطوانات التي سُجِّلتْ في الثلاثينيات ما تزال موجودةً إلى الآن ويَحْفظها أناسٌ عن ظهر قلب، لكنْ ليست لديهم القدرةُ على نقلها إلى الفونوغراف، إذ يحتاج ذلك إلى تقنيات دقيقة ومتطورة. وإذا استمعنا إلى هذه الأسطوانات، فإننا سنستمع إلى هموم الناس وإلى مشاكلهم وإلى تاريخهم العريق. وفي هذه الأسطوانات يمكن أن يجد فيها الأنثروبولوجيُّ ما يبحث عنه، كما يَعْثر فيها السياسيُّ على ضالّته، والمؤرِّخُ على مادةٍ لإغناء صورته عن تاريخ المغرب العميق.

كما يمكنني هنا أن أقدِّم نموذجًا آخر عن الشعر الأمازيغي، وأعني به شعرَ الرحلات، لأنّ الرحلة تشكّل مصدرًا لمعرفة ذواتنا. وتنقسم الرحلةُ الأمازيغيةُ إلى قسمين رئيسين: الرحلة الواقعية والرحلة الخيالية. فأما الرحلات الواقعية فغنيّة بأخبار البلدان والأعلام وطبائع الناس. وأما الرحلات الخيالية فلها أهدافٌ تربوية. وأذكر كنموذج لهذا النوع من الرحلات رحلةَ «حمو نمير،» وهي رحلة من الأرض إلى السماء قام بها رجلٌ أحبّ حوريةً وأراد أن يحلِّق في السماء ليصل إليها، فاختار لرحلته طائرًا خرافيًا ذَبَحَ له فرسَه ـ وما أصعب أن يذبح الأمازيغيُّ فرسَه. وقبل أن يصل الحبيبُ إلى حوريته نَفَد لحمُ الفرس، فراح الرجلُ يقطع من عضلات يديه ويُطْعم الطائرَ الخرافي. ولما ذاق هذا الطائرُ اللحمَ التفت إلى الرجل وقال له: «يا حمو، هذا ليس لحمَ الفرس، بل لحمك.» فأجابه حمو: «أوصِلْني حيًا إلى حبيبتي ولو بقطعة لحم واحدة.» وهناك كذلك حكاية ذلك الصبي الذي صار من كبار العلماء، ولما مات وذهب في رحلة إلى الجنة بحث عن أبويه فلم يجدهما، وحين سأل عنهما قيل له ربما يكونان في عالم الجحيم. فلما رحل إلى هذا العالم وجد والديه بالفعل، فسألهما عن الذَّنْب الذي اقترفاه حتى عوقبا بالنار، فقالا له: «عندما كنتَ صغيرًا لم نجد ما نطعمكَ به، وكان العام عامَ مجاعة، فإذا بضيف حَلَّ بنا، فقتلناه وأخذنا ما معه من المال، فربَّيْناك وعلَّمناك به!»

في ختام مداخلتي أودّ أن أَخْلص إلى أنّ كلمة «أمازيغ» تعني الأحرارَ، أي النبلاء. وقد وصلتُ في تحليلاتي للعديد من النصوص والمخطوطات والأسطوانات الأمازيغية إلى أنّ الأمازيغ هو الفكر الحر؛ عنيتُ: إذا أردتَ أن تحاور فَلَكَ الحريةُ، لكنْ حاوِرْ بكلّ نبل. وهذا النبل لا يعزِّزه الخيالُ وحده، وإنما العقلُ كذلك. وإذا انتفى أحدُ هذه المقوِّمات فإنّ ذلك يعني الخروج عن الخصوصية والتميز اللذين يَطْبعان الحوار الأمازيغي. فليكن لقاؤنا اليوم محكومًا بهذه المقوِّمات (النبل والحرية والعقل) في سيرورته واستنتاجاته وآفاقه.

لبيض: هناك فكرة أودّ أن أطرحها للنقاش، وتتعلق بمسألة النضال من أجل الديموقراطية في المغرب. فالأمة والدولة في المغرب متماهيتان؛ والنضال الديموقراطي الحقيقي لا بدّ أن يضعنا في مواجهة سؤال الفصل بين العنصريْن؛ والفصل يستدعي إعادةَ التفكير في وظيفة المؤسسة الملكية. إنّ هاجس إعادة النظر في الهوية المغربية سيقودنا جميعًا إلى إعادة النظر في مفهوم الدولة وفي آليات شرعنة الدولة لنفسها ولوجودها. وهذا التحدي مطروحٌ بشدة اليوم على الإخوة في الحركة الأمازيغية. فهل تستطيع هذه الحركة أن تضع فصلاً قاطعًا بين مفهوم الدولة والأمة كما هو دارج في الأدبيات السياسية المغربية حاليًا؟ ومَنْ ستؤول إليه آنذاك القيادةُ؟ هل الدولة هي التي ستشكّل ماهيةَ الأمة مرةً ثانية، أم أنّ الأمة هي التي ستختار الدولةَ التي ستمثِّلها؟

أخياط: للإجابة على سؤال الدولة والأمة، علينا العودة إلى موضوع الهوية. لا بدّ من الإشارة هنا إلى وجود نوعين من الهوية: الهوية المنسجمة والهوية المركّبة. ونحن، كحركة أمازيغية، نَرْفض تصنيفَ الهوية المغربية في إطار الهوية المركّبة، كما يرى البعض حين يَعتبرون هذه الهوية مشكَّلةً من أعراق مختلفة: بربر وعرب وأندلسيون وزنوج. إنّ الهوية المغربية منسجمة وموحَّدة، لكنّها عرفتْ وفد حضاراتٍ وأقوام وديانات، فاستوعبتْها داخلها، وتعايشتْ معها باعتبارها رافدًا من روافد الشخصية الثقافية الوطنية، من دون أن تتنازل عن أبعاد هويتها الوطنية المحكومة بالتاريخ والأرض والإنسان. وهذا يعني أنّ الدولة المغربية والقومية المغربية ليستا مكوَّنتيْن من إثنيات مختلفة كانت في الأصل شعوبًا بدون أرض، فاندمجتْ مع شعوب أخرى بأرضها، فكوَّنتْ دولةً معيّنةً. بل إنّ الأمازيغ كانوا على أرضهم، وكانوا شعبًا منسجمًا، إلى أنْ وَفَدَتْ عليهم أقوامٌ بفعل الهجرة أو بدواعي الاستعمار والاحتلال فاندمجتْ في الهوية الأمازيغية المغربية وتلبَّستْها راضيةً.

هناك نماذج من الدول ذات الهوية المركّبة مثل بلجيكا، حيث نجد الفلاميين قد اندمجوا مع شعب فرنسي بأرضه وتاريخه وحضارته، فاتفق الطرفان على تكوين دولة اسمُها بلجيكا، بحيث يكون مفروضًا على مَلِكِ البلاد أن يلقي خطابَه بلغتين رسميتين ووطنيتين هما الفلامية والفرنسية. ويمكن أن نَذْكر كنموذج آخر العراقَ وقضيةَ الأكراد فيه: فالأكراد ليسوا عربًا، بل كان هناك شعب كرديّ له أرضُه وتاريخُه وثقافتُه وحضارتُه، إلى أن جاءت الحربُ العالمية الثانية فشتَّتَتْهم بين تركيا والعراق وإيران... لذلك لا يستطيع أيُّ حاكم أن يذيب الأكرادَ أو يَمْحق هويتَهم أو يَدْمجها في هوية أخرى لأنهم شعب بأرضهم وبلغتهم وبثقافتهم؛ فلا الأكراد يَقْبلون أن يكونوا عربًا، ولا العرب يقبلون أن يصيروا أكرادًا. وبالتالي، فإنّ مستقبل العراق قائم على أساس دولة ذات هوية مركّبة. وهذا الوضع يكاد ينطبق على السودان. أما المغرب فلا ينطبق عليه مفهومُ الهوية المركّبة.

إنّ الهوية المغربية، كما نرى، لا تعتمد في تحديد خصائصها على العِرْق، وإنما ترتكز على الأرض والشعب والثقافة والحضارة. وهذه كلُّها مكوِّنات ذات ملامح أمازيغية صرفة. فهناك زنوج جاءوا من إفريقيا ودخلوا إلى الهوية الأمازيغية، كما أنّ هناك عربًا قَدِموا من الجزيرة العربية واختاروا أن يندمجوا في الهوية الأمازيغية، وهناك أوروبيون نزحوا من أوروبا ودخلوا الأرض الأمازيغية وقبلوا الاندماج مع الشعب الأمازيغي. وداخل الحضارة الأمازيغية شكّلتْ كلُّ هذه الأعراق هويةً وطنيةً منسجمةً هي الهوية الأمازيغية. وحدهم العربُ المساكين هم مَنْ يتمسكون بالعِرْق ويتعصَّبون له. ففي إطار المنظومة العربية يقولون: العربي + إنسان آخر = إنسان عربي. فبمجرد أن يكون هناك عشرة أفراد عرب دخلوا أرضًا غيرَ عربية، يدّعون أنّ الكل ذاب فيهم وصار عربيًا! وهذا يدلّ على أنّ الفئة من العرب التي دخلت المغربَ مع الفتح الإسلامي فَرَضَت الهويةَ العربيةَ على باقي الشعب المغربي الأمازيغي اعتقادًا منها أنّ العِرْق العربي هو الصافي النقي الذي لا يُمْكن أن تَفْعل فيه عوائدُ الزمان ولا تقلّباتُ الجغرافيا. وشخصيًا أستغرب عندما أسمع في المغرب مَنْ يقول إنّ أصله عربي، رغم مرور كلّ هذه العصور والأحقاب، وكأنّ العِرْق لا يذوب ولا يتحول؛ في الوقت الذي نجد في أميركا مثلاً أنّ الرئيس الأميركي السابق كلينتون، وهو إيرلندي الأصل، لا يَذْكر أصله وإنما يفتخر بهويته الأميركية، لأنّه بعد مرور أجيال صار مواطنًا أميركيًا ـ فكرًا وثقافةً وحضارة. وكذلك الشأن بالنسبة إلى الرئيس الأمريكي الحالي جورج بوش الابن؛ فهو رغم أصوله الألمانية إلاّ أنّه يظلّ أميركيًا ـ ثقافةً وسلوكًا ومشاعر. وليس سوى العنصر العربي الذي لا يذوب ولا يفنى في الهويات التي يَدْخلها.

ما يجب أن يفهمه الإخوةُ في المشرق العربي، وكذا أدعياءُ القومية في المغرب، أنّ الحركة الثقافية الأمازيغية ليست حركةً ضد فكرة القومية العربية حين تطبَّق في إطارها الجغرافي والبشري والتاريخي، حيث للعربي الحقُّ في أن يدافعَ عن هويته ويفتخرَ بقوميته أشدَّ الافتخار. لكنْ عندما تَخْرج هذه القوميةُ

الإسلاميون المغاربة غير قادرين على إبداع خطاب إسلامي ذي خصائص مغربية، كما كان الوضع في عهد المرابطين والموحدين

عن هذا الإطار وتُفْرض على الغير، فعندئذ تتحول إلى استعمار واحتلال تجب مقاومتُهما. لذلك نقول، نحن الأمازيغ، للعرب: إنّ لنا خصوصيَّتَنا ومميِّزاتِنا الحضارية، ولن نصير عربًا مهما فعلتم، وإنْ طال نضالُنا قرونًا من الزمان.

وردتْ في بعض المداخلات إشارةٌ إلى الاهتمام الأجنبي بالقضية الأمازيغية من خلال الاستشهاد بكتابات كتّاب غربيين. والغاية من هذه الإشارة، كما لا يخفى على لبيب، ربطُ الحركة الثقافية الأمازيغية بسياقٍ غيرِ السياق الحقيقي الذي تبلورتْ داخلَه، وذلك لنعتها بالعمالة للغرب الاستعماري. وقد سبق لي في المداخلة الأولى أنْ أوضحتُ السياقَ التاريخيَّ والمجتمعيَّ الذي تحكَّم في نشأة الحركة الأمازيغية، حيث كانت تعبيرًا عن حاجة مجتمعية واستجابةً لشرط تاريخي عنيف كان قد أدّى بالمغرب إلى معايشة فترات حالكة من تاريخه (سُمِّيتْ بفترات الحديد والنار). لهذه الغاية أقول لمروِّجي خطاب «المؤامرة والعمالة» إنّنا لسنا صنيعة فرنسا أو أميركا، ونربأ بأنفسنا عن أن نتكلم على ثقافتنا وحضارتنا الأمازيغية انطلاقًا مما كتبه هؤلاء الكتّابُ الذين وَرَدَتْ أسماؤهم في إحدى المداخلات. إنّ الكتابات الفرنسية التي أوردها الأخ المسعودي لا تهمّنا نحن الأمازيغَ لأنّنا نحن مَنْ قاوَمَ الاحتلالَ الفرنسيَّ وعانيْنا بطشَه وتجبُّرَه؛ والقريةُ التي أنتمي إليها نصفُها خَرِبَ بقنابل الاستعمار الفرنسي. ونحن مَنْ قاوم كلَّ الاحتلالات التي واجهناها، من الرومان والوندال والبيزنطيين والعرب والفرنسيين. لذلك فنحن لسنا بحاجة إلى مَنْ يزايد علينا في الوطنية! وبمناسبة الحديث عن الكتابات الفرنسية عن الأمازيغية، أريد أن أسأل الأخ مصطفى عن الكتابات **العربية** عن الأمازيغ، وهم [العرب] مَنْ سَبَقوا الفرنسيسَ إلى استعمار المغرب واحتلاله؟ إنّ نظرية المؤامرة التي يتكلم من خلالها الأخ المسعودي عفا عنها الزمانُ، والأهم منها ـ في نظري ـ العملُ على إعادة اكتشاف الذات والتحرر من النزعة الإسقاطية. فنحن نعيش لحظة تاريخية فارقة تحتِّم علينا تحمُّلَ مسؤوليةِ إنصافِ تاريخنا وإعادة الاعتبار إلى شخصيتنا الوطنية، بعيدًا عن زيف الإيديولوجية ووحل الإثنية والعرقية.

ثم إنّني أتساءل دومًا لماذا يصرّ الإخوة في الحركات الإسلامية المغربية على وضع الأمازيغية في حالة تناقض وخصومة مع الإسلام؟ إنّه، لعمري، طرحٌ خاطئٌ حتى النخاع. فالأمازيغ مثلهم مثل جميع العجم في العالم. وأنتم تعرفون أنّ نسبة المسلمين العجم تبلغ ٩٠ بالمائة، وهؤلاء يمارسون ثقافتَهم وحضارتَهم ودينَهم بعجميتهم. فلماذا الأمازيغ وحدهم تريدون أن تضعوهم، عندما ينادون بإعادة الاعتبار للغتهم وثقافتهم ورفضهم للقومية العربية، في الخطّ الناقض للإسلام؟ الجواب ليس عسيرًا؛ فالحركة الإسلامية المغربية ليست إلاّ انعكاسًا للخطاب القومي العربي... بعمامةٍ إسلامية. لقد تبنّى الإسلاميون المغاربة ما أنجزه القوميون العرب، فراحوا يروِّجون له بمفاهيم إسلامية تَهْدف إلى إقصاءِ كلِّ تميّز. وأقولها وأكررها على مسامع الإسلاميين المغاربة، وقد قلتُها من قبل للأستاذ عبد السلام ياسين، أنتم غير قادرين على إبداع خطاب إسلامي ذي خصائص مغربية، كما كان الوضع في عهد المرابطين والموحّدين. أنتم، للأسف الشديد، لستم سوى نسخة من الخطاب الإسلامي المشرقي في المغرب. وسيكون مصيرُكم، إذا أنتم لم تتداركوا الأمر، صنوَ مصير خطاب القومية العربية في المغرب.

لبيض: في ميثاق أغادير ١٩٩١، طالبت الحركةُ الثقافيةُ الأمازيغية بسَنِّ سياسة لغوية وثقافية ديموقراطية، أساسُها الاعترافُ بكل اللغات بشكلٍ متساوٍ واحترامُ الحقوق الثقافية واللغوية لمختلف مكوِّنات الجسد الثقافي الوطني. لكنْ في خطابات هذه الحركة وفي تصريحات الفاعلين داخلها نلاحظ العكس، إذ نَلْمس حضورًا قويًا لخطاب النزعة الأحادية والاستئصالية، وذلك من خلال اعتبار الخطاب الأمازيغي نفسَه البدءَ والمنتهى في تشكيل الهوية الوطنية وفي تقرير المصير اللغوي والثقافي للشعب المغربي! السؤال الذي يُطرح على الإخوة في الحركة الأمازيغية هو التالي: إذا كنتم تناضلون من أجل مجتمع ديموقراطي، فأين هي الممارسة الديموقراطية في مثل هذا الخطاب؟ وإذا كانت مسألةُ الهوية

مسؤوليةَ كل الشعب المغربي الذي له الحقُّ وحدَه في تقرير مصيره الثقافي والهوياتي، فلماذا لم تطالبوا بإجراء استفتاء شعبي يقول فيه الشعبُ كلمتَه الأخيرةَ في الموضوع؟

النقطة الثانية هي أنّنا لا نفهم لماذا يصرّ الإخوة في الحركات الأمازيغية على تدويل القضية وإعطائها بعدًا خارجيًا. ففي مؤتمر ڤيينا لحقوق الإنسان الذي انعقد سنة ١٩٩٣، قدّمت الحركةُ الأمازيغيةُ مذكّرةً اعتبرتْ فيها الأمازيغيين أقليةً تدافع عن هويتها المغتصبة من طرف أغلبية لا نَعْلم شكلَها، مع أنّ الحركات الأمازيغية لا تكفّ داخل الوطن عن ترديد أنّ الأمازيغ هم الأغلبية وأنّ الدم العربي لا يمثل سوى واحد بالمائة من الدم المغربي! ألا ترون أنّ الحسم في المسالة الأمازيغية أمرٌ يهمّ القوى الوطنيةَ الحيّةَ في المغرب، وأنّ تحقيق هذا الحسم بشكل توافقي بين أطراف المجتمع المغربي سيكون انتصارًا للديموقراطية ولتحقيق دولة الحق والقانون التي نسعى إليها؟

أرحموش: قبل قليل ربط الأخ المسعودي بين نضال الحركة الأمازيغية وبين الخطط الاستعمارية الفرنسية. وأعتقد أنّ الأمازيغ هم من أكبر ضحايا الفكر القدحي والمهين للشخصية الوطنية. ففي سنة ١٩٥٦، وبعد اتفاقية إيكس ليبان، كان أول عمل دَشّنتْ به الحركةُ الوطنيةُ فترةَ الاستقلال هو إغلاق مدرسة أزرو للغة الأمازيغية. تُضاف إلى ذلك ظاهرةُ الاغتيالات التي طالت آنذاك رموزَ الحركة الأمازيغية مستخدمةً [أي الحركة الوطنية] ما أَسْمَتْه من وحي خيالها «الظهيرَ البربريَّ.» وقلتُ «من وحي خيالها» لأنّ فرنسا هي التي صكّت المصطلح «الظهير المنظِّم للمحاكم العرفية البربرية.» وقد كان مجردَ ظهير من ثمانية فصول تحدِّد اختصاصاتِ بعض المحاكم، ولا علاقة له بالفصل بين العرب والأمازيغ؛ غير أنّ الحركة الأمازيغية هي التي جعلتْ منه قضيةً، ليتخذه بعد ذلك أعداؤها سبّةً يعيِّرونها بها.

بعد انتهاء «مرحلة الظهير البربري،» أصبحنا اليوم نواجَه بتهمة العمالة للغرب وللصهيونية والإمبريالية العالمية. وهي مجرد أحكامُ قيمةٍ، الغايةُ منها تحويلُ الأنظار عن حقيقة المعاناة التي يعيشها المغربُ، وعن درجة الظلم الثقافي والسياسي والاجتماعي الذي تَرْزح تحته الغالبيةُ من المواطنين الأمازيغ المغاربة. وللأسف، فإنّ مثل هذه الأحكام تَصْدر اليوم عن أناس فشلوا فشلاً ذريعًا في التجاوب الخلاّق مع الإشكالية الجوهرية التي تَصْدمهم بها المسألةُ الأمازيغيةُ في المغرب خاصةً، وفي شمال إفريقيا عامة.

عندما نقول في الحركة الأمازيغية إنّ هناك إشكالاً لغويًا عميقًا في المغرب، فلأنّ هناك بالطبع إشكالاً لغويًا. ومَنْ ليست لديه الجرأةُ على مجاراتنا في النقاش واستنباط الحقائق في هذا الموضوع الشائك، يكتفي بالقول إنّ هؤلاء الأمازيغ يسعون إلى إثارة فتنةٍ من شأنها أن تَعْصف بالبلاد فتجزِّئَها. ونحن نردّ بالسؤال: ماذا نجزِّئ من هذا الوطن؟ وإذا كانت هذه رغبتنا حقًا، فما هي الأجزاء التي ستَؤُول إلى الأمازيغ؟ هذه هي أحكام الحركة الوطنية، وهذه هي إفرازاتها المتشبّعة بالفكر القومي الشمولي والديكتاتوري! وها هي اليوم الحركة الإسلامية المغربية تتبنّى الخطابَ ذاتَه متلفّعًا برداء إسلامي، فتُصْدر خطابَ القدح وأحكامَ القيمة التي لا تستند إلى وقائع ولا تحتكم إلى تاريخ. ومع وجود مثل هذا الخطاب، فلا سبيل إلى التقدم في الحوار، وسنضطرّ يومًا ما إلى وضع فاصلٍ بيننا وبين هؤلاء، وآنئذ سنقول لهم وبدون مواربة: إنّ أرضَ اللّه واسعة!

طرح الأخ لبيض مسألةَ الارتباط بمؤتمر ڤيينا، وتساءل: لماذا تمّ تدويلُ القضية الأمازيغية وهي قضية وطنية؟ ولكي أجيبه على هذا السؤال، لا بدَّ أن نرصد أمامكم الظروفَ التي سبقتْ هذه المبادرة. فقد واجهت الحركةُ الأمازيغيةُ منذ نشأتها كلَّ أشكال الحصار المادي والمعنوي من طرف الدولة، ومن لدن الهيئات السياسية والنقابية ومنظّمات المجتمع المدني. لنأخذْ، على سبيل المثال، الشعارات التي تُرفع في المظاهرات المساندة للشعب

الفلسطيني، من مثل: «خيْبر خيْبر يا يهود، جيشُ محمد سيعود،» «أمة عربية واحدة وشعب عربي واحد،» «والأرض تتكلم عربي...» إلى غير ذلك من الشعارات المستفِزَّة. وهذه من القضايا الخطيرة التي يتم الترويجُ لها من قِبل مجموعة من الفعَّاليات المرتبطة فكريًا بجهات معلومة في الشرق العربي، وهي موجَّهة ـ بالتحديد ـ لتقنين العقلية المغربية والفكر المغربي في اتجاه المشرق العربي؛ وهذا ما زاد من إضعاف حركة حقوق الإنسان والديموقراطية في المغرب. أمام هذا الوضع المأزوم لم يكن أمام الحركة الأمازيغية سوى الذهاب إلى المنتظم الدولي، وبخاصة المنظَّمات غير الحكومية. وكان مؤتمر ڤيينا فرصةً أمامنا للتعريف بقضيتنا باعتبارها قضيةً إنسانية، قضيةَ شعبٍ محروم من التعبير عن شخصيته الوطنية. والأستاذ إبراهيم كان معنا في مرحلة النضال التي لم تُسْفر عن أيّ شيء يذكر، فما المانع من أن نحوِّل الموضوعَ إلى المنابر العالمية ذات التأثير القوي على مجريات الأمور الدولية؟! وحين قدَّمنا اقتراحاتِنا ومطالبَنا إلى المنتظم الدولي استندنا إلى المواثيق الدولية حول حقوق الإنسان، وهي مواثيق عالمية وملزِمة لكلّ الدول، بما فيها المغربُ الموقِّعُ عليها. والحديث اليوم عن «الوطني» و«الدولي» لا يتناغم مع الوضع العالمي الجديد: فلم تعد هناك حدود سياسية أو سيادية في مجال حقوق الإنسان، إذ لم يعد العالمُ يَسْمح باغتيال الشخصية الوطنية أو إبادة الجهويَّات داخل القطر الوطني دون أن تكون لذلك تداعياتٌ على المستوى الدولي. إنّ هناك اليوم ارتباطًا بين القضايا الإنسانية، سواء كانت مادية أو معنوية، لأنّها تتحول في لحظة خاطفة إلى قضية دولية تتدخل فيها المنظماتُ الحقوقيةُ والسياسيةُ المرتبطةُ بالأمم المتحدة في مجال حقوق الإنسان، بل يمكن أن تتدخل فيها حكوماتٌ ودولٌ لها غيرةٌ على حقوق الإنسان [!]. وهكذا، فعندما طَرَحْنا ملفَّ الأمازيغية على مؤتمر ڤيينا كنا قد استحضرنا كلَّ هذه التطورات العالمية في مجال حقوق الإنسان. وللإشارة، فإنّ تدويل القضية الأمازيغية لم يأتِ نتيجةَ المذكّرة المرفوعة إلى مؤتمر ڤيينا فحسب، بل نتيجة تأسيس الكونغرس العالمي الأمازيغي أيضًا، وتأسيس لجان موازية في أوروبا وأميركا لها صلةٌ بالموضوع. وهذا كلُّه يَدْخل في إطار التضامن العالمي مع قضية عالية يجب التعاطي معها بشكل إيجابي.

أما بخصوص قضية الدولة والأمة ومستقبل نضال الحركة الأمازيغية، فإنّني أؤكد أنّ الدولة المغربية وَضَعتْ نفسَها في حلبة الصراع كخصم لنا منذ أن تبنّتْ فكرًا عروبيًا قوميًا شوفينيًا وفكرًا أصوليًا سلفيًا وإرهابيًا! وسوف نناضل من أجل إعادة الاعتبار إلى الفكر الإنساني، وسنناضل ضد كل السياسات غير الوطنية التي تنتهجها الدولةُ والتنظيماتُ السياسية حتى نقيم أسسَ مصالحةٍ مع الذات الوطنية في أبعادها الحضارية والثقافية واللغوية الحقيقية. وهذا المشروع يحتاج بالأساس إلى دولة وطنية قوية وجريئة، بتنظيمات ومؤسسات ذات تمثيلية شعبية حقيقية ومؤمنة بالانفتاح وبالتنوع وبالحوار مع كافة ثقافاتها ولغاتها بشكل عادلٍ ومتساوٍ. وهناك تجارب دولية متقدمة استطاعت أن تحلَّ كلَّ معضلاتها الثقافية دون ما حاجة إلى كل هذه الجعجعة التي أحدثها البعضُ في المغرب. ويكفي أن ننظر إلى تجارب كل من بلجيكا وألمانيا وسويسرا ونحاول أن نطبِّقَها في المغرب، ولو في إطار من الأنظمة الفيدرالية التي لا تقوم على المنطق اللهجاتي أو الجهوي، وإنما على منطق التوازنات الاقتصادية والسياسية والثقافية واللغوية.

أمينة: سبقني الأستاذ أرحموش إلى توضيح العديد من القضايا التي كنتُ أودّ طرحَها. لكنّني سأضطر إلى الوقوف عند التهم المجانية التي تكال بالأطنان للحركة الأمازيغية، والتي وردتْ في عرض الأستاذ المسعودي. ومن بين هذه التهم أنّ الأمازيغية طرح استعماري صهيوني. وما نستغربه أكثر هو أن نسمع مَنْ يدعي أنّ تدريس الأمازيغية في الجامعات العالمية ليس إلاّ مؤامرةً صهيونيةً ودليلَ عمالةٍ لجهات إمبريالية عالمية، في الوقت الذي لا نسمع مثلَ هذا الكلام عندما يتعلق الأمر

بتدريس اللغة العربية في هذه الجامعات نفسها وفي غيرها!

لو كانت الحركةُ الأمازيغيةُ مسنودةً بقوًى إمبريالية وصهيونية، ألم تكن هذه القوى قادرةً على حمايتها وضمان حقوقها المهضومة؟ ولو صحّ الادّعاء، ألم تكن الأمازيغية اليوم لتَنْعم ببعض من الدلال الذي تَرْفل فيه إسرائيلُ التي تعيث فسادًا وقتلاً في أرض فلسطين بدون مواربة وبدعمٍ لامشروطٍ من راعيتها وراعيةِ مشروعها الاستعماري العنصري: الولايات المتحدة الأميركية؟ وإذا كانت أمريكا تريد حقًا تبنّي قضيتنا، فهل كانت ستُعْوِزها الحيلةُ والإمكانياتُ في فرض مطالبنا على الدوائر الرسمية في المغرب؟ وإذا كانت الأمازيغية طرحًا استعماريًا حقًا، فهل كنّا سنحتاج اليوم إلى مثل هذه الندوة حتى نستطيع إسماعَ صوتنا للآخر وطرحَ مطالبنا العادلة على المجتمعات العربية حتى تتفهم معاناتنا؟ إنّها حقًا ادّعاءاتٌ مجانيةٌ ومغرضةٌ تجانِب الحقيقةَ والواقع وتتمسك بأوهام الإيديولوجية المندحرة. ومثل هذه التهم لن تفيد في تحقيق الديموقراطية والعدالة الاجتماعية التي نسعى جميعًا إليها في مغرب «الانتقال الديموقراطي.»

المسعودي: أستسمح الأستاذ أمرير في أن أستعير منه تعبيرًا كان قد وظّفه في نهاية مداخلته، وهو «نبل الحوار الأمازيغي،» لأدعو الإخوةَ إلى ضرورة التسلح بمقوِّمات هذا النبل الأمازيغي حتى نرقى بحوارنا إلى مستوى الحوار الديموقراطي النبيل والحر.

في مداخلتي السابقة لم أتّهم أحدًا من الإخوة الشرفاء في الحركة الأمازيغية بالعمالة للاستعمار. لكنّني، كمتلقٍّ داخل المغرب، أقرأ يوميًا العديدَ من التصريحات ضد العروبة والعربية، وأَسْمع الشعارات التي تُرفع في بعض المظاهرات الشعبية من نوع «لا لعروبة المغرب،» وأرصد تصريحاتٍ ناريةً تقف موقفًا سلبيًا من الإسلام والفتح الإسلامي، إضافةً إلى مواقف تدعو إلى التطبيع مع الكيان الصهيوني. وإزاء ذلك كله لا أجد سبيلاً آخر لتفسير كلّ هذا إلا بربطه بسياق الأفكار الاستعمارية التي ظهرتْ منذ فترة بعيدة وتخصّ القضيةَ الأمازيغية.

وإذا أردنا أن نتحلّى بالنبل الأمازيغي في الحوار، فيجب أن لا نصادر الرأيَ المخالف. ومن المجحف عندما نتحدث عن الحركة الإسلامية المغربية أن نختزلها في شخص الأستاذ عبد السلام ياسين. وهناك بالطبع جسم حركي إسلامي ممتدّ يضمّ أصواتًا تعاني اليوم تحت الحصار القمعي للنظام، وهي بالمناسبة أصواتٌ ديموقراطيةٌ تَحْمل مشروعًا حضاريًا بديلاً، وتحاول الإجابةَ ـ من خلاله ـ على كل التعقيدات التي تعيشها الأمةُ، وفي مقدمتها إشكاليةُ الهوية. ومن أهمّ ما يميِّز هذا المشروعَ الحضاريَّ تعاليه على الأعراق والأجناس واللغات، والعودةُ بالإنسان إلى جوهر تكوينه الحقيقي ـ وهو جوهرٌ فكريٌّ بالأساس.

لاحظتُ في حديث بعض الإخوة عن الأمازيغية تبنِّيهم للخطاب العِرقي، وإنْ كانوا يرفضونه، وذلك من خلال الانطلاق من مبدإ «أنا أمازيغي والآخر غير ذلك.» وأما نحن فنقول إنّنا جميعًا مغاربة بأوجه متعددة تندغم جميعًا داخل وطنٍ اسمُه المغرب. لهذه الغايات جميعها أدعو الإخوة إلى العودة إلى خطاب الحركة الأمازيغية وقراءته في تعدده وتنوعه؛ فالحركة الإسلامية عام ٢٠٠٤ هي غيرُها الحركة الإسلامية في سنوات الثمانينيات، بعد أن شهدتْ جملةً من التطورات والتغيرات العميقة والفاعلة.

ما نستغربه في كلام الإخوة في الحركة الأمازيغية هو تغييبُهم الكليّ لاختيارات الإنسان المغربي على مدار التاريخ. وإلاّ فكيف تَحْتقر اليوم المجاهد عبد الكريم الخطابي الذي اختار المشرقَ عمقًا استراتيجيًا له في كفاحه ضد الإمبريالية العالمية آنذاك؟ ولماذا تحتقر اليوم اختياراتِ العلاّمة المختار السوسي؟ بل ولماذا تحتقر الاختياراتِ الاستراتيجيةَ الكبرى للدول المغربية المتعاقبة: بنو عصام، بنو مدرار، بنو يفرن، بنو زيز، بنو حماد، بنو الأفطس، المرابطون، الموحّدون، الوطاسيون... وهي دولٌ

لو كانت الأمازيغية مسنودةً بقوى إمبريالية وصهيونية، ألم تكن اليوم تَنْعم ببعض من الدلال الذي ترفل فيه إسرائيل؟!

أمازيغيةُ النشأة والأصول والمرجعيات؟ ألم نتساءل يومًا لماذا اختارت هذه الدول الشرقَ العربيَّ عمقًا استراتيجيًا في سياساتها الدولية الخارجية؟ ولماذا لم تطرح مثل هذه الحساسيات التي تروِّج لها الحركةُ الأمازيغيةُ اليوم؟

يجب على الإخوة في الحركة الأمازيغية أن يدركوا أنّنا كمغاربة نختلف من حيث الوجود والمسار الحضاريان عن الوجود الأفغاني والفارسي أو غيرهما. فنحن وَجَدْنا استقرارَنا مع الفتح الإسلامي. وأعتقد أنّ الأستاذ أمرير من خلال الوثيقة التي قدَّمها لنا استطاع أن يجيب بشكل كبير على درجة التماهي والتداخل عند المغاربة بين المعطييْن التاريخييْن. وقد أشار إلى الشعر الأمازيغي، وأنا من المطَّلعين على هذا الشعر، وبالخصوص الشعر الأمازيغي الريفي في فترة الستينيات، وأستطيع القول إنّ ثمة تماهيًا كبيرًا بين الشعر الأمازيغي والشعر العربي. وما يَحْدث الآن للأغنية الأمازيغية فيه كثيرٌ من المسخ والتهجين، القصدُ منه عزلُه عن امتداده العربي.

وختامًا أقول إذا أردنا أن نتطور في الحوار، فيجب أن نحترم الآراء المتعددة. وإذا كنّا لا نريد أن نعيد إنتاج الاستبداد القومي المشرقي، فيجب علينا كمغاربة وكأمازيغ التحلّي بمستوى عالٍ من النبل في الحوار والديموقراطية.

أخياط: أولاً، أظنّ أنّ الأخ المسعودي يَعْلم أنّه داخل كل حركة توجد سلوكات، وبالتالي لا يمكننا أن نَحْكم على أية حركة من خلال أفعال أو تصريحات أشخاص محددين. كلُّ ما قدَّمه الأخ من دلائل على أنَّه موقفُ الحركة الأمازيغية ليس في الحقيقة سوى مواقف شخصيات لها الحريةُ الكاملةُ في أن تُصْدر مواقفَها بالشكل الذي يُرضي قناعاتها. أما الحركة الأمازيغية فلها قنواتُها الرسميةُ التي تعبِّر من خلالها عن مواقفها.

ثانيًا، عندما يَرْفع البعضُ شعار «لا لعروبة المغرب» فهو شعار بمثابة رد فعل على مَنْ يَرْفع شعار «المغرب دولةٌ وأمةٌ عربيةٌ وإسلاميةٌ» وهو يَعْرف أنّه لا يوجد في المغرب عرب ومسلمون فقط، بل هوية وطنية كبرى. وعندما نتكلم عن العروبة ونقف منها هذا الموقفَ السلبيّ، فإنّنا نشير بالبنان إلى إيديولوجية الفكر القومي العربي باعتبارها إيديولوجيةً إثنيةً عرقيةً إقصائية، ولا نَقْصد بذلك **اللغةَ العربيةَ** التي أعطاها الأمازيغ من فكرهم وإبداعهم وجهدهم أكثرَ مما أعطاه لها المتحذلقون بالشعارات القومية البرّاقة.

تحدَّث الأخ مصطفى عن إنجازات الحركة الإسلامية في سبيل القضية الأمازيغية. وأنا أسأله الآن: ماذا قدَّمت الحركةُ الإسلاميةُ للحركة الثقافية الأمازيغية؟ وأطلب منك يا أخ مصطفى أن تذكر لي عملاً وحيدًا قدَّمتُه حركتُكم وغيرُها في سبيل دعم الأمازيغية في المغرب، سواء في منشوراتها أو مطبوعاتها أو ندواتها.

المسعودي: عندما يتحدث الأستاذ إبراهيم عن مساهمة الحركة الإسلامية المغربية في العمل الأمازيغي، فلا بدّ أن يَعْلم أنّ مشروع الحركة الإسلامية الحضاري يتعالى على مسألة اللهجة واللغة. الحركة الإسلامية الديموقراطية والمتنورة مستعدّةٌ اليومَ لحل الإشكاليات الجوهرية في المغرب، ولديها مشروع كبير وطموح، من أبرز سماته المساهمةُ في تحقيق الانتقال إلى الدولة الديموقراطية. وآنذاك يُمْكننا فتحُ كل الملفات العالقة و..

أخياط (مقاطعًا): رجاء أن تحدّثنا عن أشياء ملموسة، واعْفِنا واعْفِ القارئَ العربيَّ في المشرق من الشعارات التي أقضَّت مضجعَه دون جدوى منذ سنوات عديدة. إذا كنتم حركةً حقيقيةً، فأَخبِرْنا عن منجزاتكم العملية في مجال دعم القضية الأمازيغية باللغات الأمازيغية. أما الكلام العامّ والفضفاض فقد شبعنا منه حدَّ التخمة. إنّ كلامكم، اليوم، يشبه خطابَ اليسار المغربي في الستينيات: فقد كان يبشِّر هو كذلك ببزوغ الدولة الديموقراطية، وبحلّ كلّ المعضلات السياسية والاجتماعية والثقافية واللغوية داخل رحابه؛ ولكنْ حين جاء إلى سدّة الحكم لم يفعل للأمازيغية غيرَ مزيدٍ من التضييق والحصار!

المسعودي: هناك العديد من الجمعيات الأمازيغية الإسلامية التي تعمل في المجال وبالمواصفات التي ذكرتم.

أخياط: واللّهِ لا أعرف واحدةً منها!

المسعودي: هذه مشكلتك. ربما لا تتابع ما يجري من تفاعلات في الساحة الثقافية؟

أخياط: لنفترضْ أنّ هذه الجمعيات موجودة، فأين هي إنتاجاتُها بالأمازيغية؟ هذا هو المهم بالنسبة إلينا.

المسعودي: مَنْ أعطاك الحقَّ لتنصِّبَ نفسكَ حَكَمًا، فتَحْكم على هذا بأنّه أمازيغي وعلى ذاك بأنّه غير أمازيغي؟

أخياط: ليس هذا هو المهم. الأهمّ عندي أن تسمي لي جمعيةً أمازيغيةً إسلاميةً تنتج باللغة الأمازيغية!

المسعودي: للأسف الشديد، فإنّ ما يدّعيه الأستاذ أخياط أمامنا يُعتبر نوعًا من قرصنةِ مَلْمحٍ من ملامح الهوية المشتركة بيننا كمغاربة. ونحن نرفض تجزِّيءَ ملامح الوجه المغربي الواحد: فالعربي والأمازيغي والأندلسي والزنجي هم جميعًا ملامحُ لوجه واحد. ونحن كحركة إسلامية نَحْمل مشروعًا حضاريًا، ونرى أنّ كل إنتاج ينطلق من الهوية الحضارية المغربية إنّما هو إنتاج **مغربي**، سواء أكان أمازيغيًا أم أندلسيًا أم فرنسيًا أم عربيًا. إنّ مشكلتنا الأساسية اليوم هي بناءُ الدولة الديموقراطية، وداخلَ هذه الدولة سنَحْسم في العديد من الاختيارات الكبرى للدولة المغربية. وإذّاك، إذا أراد الإنسانُ المغربيُّ أن يتحول إلى أمازيغي، فله ذلك.

نقطة أخرى أُعيدُ إثارتَها مرةً أخرى، وهي المتعلقة بالأمازيغية كوسيلة للتواصل، لأقول إنّ الأمازيغية لم تنتقل بعدُ إلى دائرة اللغة التي تستحق فعلاً البحثَ في المشترك. لقد قلتُ للأخ إبراهيم أنت أمازيغي وأنا أمازيغي، ولكنْ مع ذلك يَصْعب التواصلُ بيننا. أليس هذا إشكالاً حقيقيًا يجب أن نجيب عنه بكل موضوعية وبدون تحيز؟

أمينة: فيما يتعلق بنقطة التواصل بين اللغات الأمازيغية، لا أعتقد أنَّ المتكلم بهذه اللهجة الأمازيغية لا يَفْهم ما يَنْطق به المتكلِّمُ باللهجة الأمازيغية الأخرى. وحتى إذا عثرنا على بعض الحالات فمردُّها إلى أنّ الأمازيغية غيرُ موجودة في التعليم والإعلام. وهدفُ نضالنا في الحركة الأمازيغية هو أن تجد الأمازيغيةُ مكانتَها اللائقةَ بها في المؤسسات التعليمية والإعلامية والإدارية. وإذا تحقَّق هذا المبتغى، فإنّ ما يَظْهر من تباعد بين اللغات الأمازيغية سينتفي لا محالة.

أخياط: المشروع الذي أشار إليه الأستاذ مصطفى لا أتفق معه، لأنه ببساطة لا يستند إلى برنامج عمل ملموس. هذا الخطاب الذي يروِّج له داخل الحركة الإسلامية المغربية يستمدّ نسغَه من حركة اليسار المغربي عندما كان في المعارضة. وما زلتُ أتذكر أنّ أقطاب حركة اليسار كانوا قد اجتمعوا في بيتي ذات ليلة وجَرَّنا الحديثُ إلى وضعية الأمازيغ، فقالوا إنّ هذا المشكل سنحلّه في إطار الدولة الديموقراطية، وأجبتُهم ساعتَها أنّ الأحزاب في الدول المتقدمة تمارس برامجَها حتى **قبل** أن تتسلم مقاليدَ الحكم، فلماذا لا تبادرون **الآن** إلى طرح الإشكال وإيجاد الحلول المناسبة له؟ والكلام نفسه قلته للأستاذ عبد السلام ياسين.

المسعودي (مقاطعًا بشدة): نحن نختلف مع عبد السلام ياسين في اختياراته وتكتيكاته. وعبد السلام ياسين لا يمثِّل إلاَّ نفسَه وحركتَه، ولا يمثِّل مجموعَ الحركة الإسلامية المغربية.

لبيض: كلام الأستاذ أخياط واضح. فهو يريد أن يقول إنّ الخطاب الإسلامي خطاب ديماغوجي، إيديولوجي في عمقه، تبريريٌّ في سلوكياته. وأمَّا اللحظة التاريخية فتتطلب منَّا جميعًا توضيحَ موقفنا من هذه الحركة، إنْ بالقبول أو

بالرفض، ولكنْ بناءً على قناعات علمية تُسْهم في تطوير آليات الانتقال الديموقراطي... وإن كنتُ شخصيًا أرى أنّ موضوع «الاعتراف» صار متجاوَزًا بعد أن أَقدمت الدولةُ على تأسيس «المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية،» وأقرّت اللغات الأمازيغية لغاتٍ وطنيةً. لكن ما يُنتظر منّا جميعًا هو تفعيلُ هذا المكتسب، والعملُ على إعداد البرامج التعليمية للغات الأمازيغية، وتسطيرُ البرامج الإعلامية الراقية للتعريف بالثقافة والحضارة الأمازيغيتيْن. ومثلُ هذا العمل الضخم يستدعي فتحَ حوار وطني حول الثقافة الوطنية، ليمرّ الجميعُ إلى مرحلة الانتقال الثقافي الحقيقية التي ستجد فيها كلُّ التنويعات الثقافية واللغوية فضاءً للعمل وللتعبير الحر عن الخصوصية والتميز في إطار من الوحدة الضامنة لاستقرار التوازنات ضمن البعد الحضاري الأكثر غنى والأكثر عمقًا في تشكيل الشخصية الوطنية المغربية.

المسعودي: الإشكال في نظري ليس قائمًا هنا، بقدْر ما هو مرتبط برغبة المغاربة أجمعين في بناء الدولة الوطنية الديموقراطية التي يمكن أن تُحلَّ في إطارها جميعُ الإشكالات، بما فيها الخياراتُ الاستراتيجية للدولة المغربية.

لبيض: ولكنّي، شخصيًا، لا أَفْهم معنى «بناء الدولة الديموقراطية.» هل، هي وصفةٌ جاهزةٌ تقدَّم إلينا وعلينا الامتثالُ لنصائحها حتى يتحقَّق لنا الشفاءُ الكليُّ من المعضلات التي نعانيها؟ إنّ بناء الدولة الديموقراطية ليس مشروعًا تخطّ معالمَه هذه الجهةُ أو تلك، بقدْرِ ما هو إجماع وطني على ضرورة الانتقال إلى مرحلة جديدة في حياة المجتمع، الأمر الذي يعني ضرورة مشاركة كافة الاتجاهات في إقامة حوار وطني حول الانتقال الديموقراطي. والأمازيغ هم جزء هام من التشكيل المجتمعي في المغرب، وبالتالي فإنّ مساهمتهم الفعلية في بناء الدولة الديموقراطية واجبة وأساسية ولا يمكن تأجيلُ القضية إلى ما بعد بناء الدولة المبتغاة!

المسعودي: في إطار الدولة الوطنية الديموقراطية سنحلّ الإشكالَ اللغوي والثقافي

أخياط : الذين يَحْكمون الآن يقولون إنّهم يحكمون وفق آليات دولة الحق والقانون وسيادة الديموقراطية. أليس باسم الديموقراطية تستباح اليومَ الحقوقُ وتُنتهك الحرياتُ في المغرب؟

المسعودي: الأستاذ أخياط ربما لم يتناول مشروعَ الحركة الإسلامية في أبعاده الكبرى، وفي الأهداف التي تجيب على كل الإشكاليات التي طرحناها. لكنّ الإشكال بيننا وبين بعض الجمعيات الأمازيغية هو: عن أية أمازيغية نتكلم؟ فنحن ضد تحويل الأمازيغية إلى لغم لإرباك المجتمع المغربي، والتشويش على التحول الديموقراطي، وإدخالِ الأمازيغ في صراع مع الإسلاميين. ونحن نقول ونعيد: إنّ التراث الأمازيغي تراث إسلامي بالدرجة الأولى، وبالتالي فإنّ الأمازيغية يجب عدم التعامل معها في انعزال عن باقي معضلات وجود الإنسان المغربي. إنّها شأن داخلي يجب أن يعالَجَ في سياق وحدة الأمة الإسلامية، لا في سياق الغرب وتآمره على شعوبنا. الأمازيغية رافدٌ من روافد الثقافة المغربية، والإسلامُ هو المرتكزُ الأساسُ للأمازيغية، والأمازيغيةُ والعربيةُ وجهان لعملة واحدة هي الإنسان العربي.

في ضوء هذه المبادئ نَقْبل معالجةَ القضية الأمازيغية. أما مَنْ سَوّلَتْ له نفسُه أن يَرْفع شعارَ «لا لعروبة المغرب،» فهو ينصِّب نفسَه خصمًا لنا ويقدِّم ذاتَه نقيضًا لقيمنا وأصالتنا وهويتنا العربية الإسلامية.

أما فيما يتعلق بإنتاج الحركة الإسلامية في مجال الثقافة واللغة الأمازيغيتين، فأدعوكم إلى أن تتابعوا بشكل علميّ وموضوعيّ خطابَ الحركة الإسلامية المتنوّرة والديموقراطية وإنجازاتها في هذا المجال. وإذا كان ثمة ما يخفى عن الأنظار من جليل هذه الأعمال، فمردُّه إلى واقع القمع الذي يمارَسُ على هذه الحركة.

إنّنا حركة إسلامية نسعى إلى تأسيس القطب الديموقراطي الذي يمكن أن يكون فضاءً جامعًا لليساري واليميني والإسلامي والشيوعي ولكل التيارات والأفكار. أما اختلاقُ النزعات التافهة، مرةً حول المرأة ومرةً حول الأمازيغية، فهو رجسٌ من عمل النظام الحاكم و«اللوبيّات» المتنفِّذة داخله من أجل عرقلة مسيرة المجتمع نحو الديموقراطية.

أخياط : إذا كان الأستاذ مصطفى قد عجز عن تقديم عمل واحد للحركة الإسلامية في سياق دعمها للأمازيغية، فأنا سأقدِّم له ما أَقدمتْ عليه الحركةُ الثقافيةُ الأمازيغية لخدمة الإسلام. فنحن في «الجمعية المغربية للبحث والتبادل الثقافي» ومنذ السبعينيات، قمنا بتحقيق كتاب سيدي محمد أوعلي «أوزال» وأصدرناه. وأصدرنا كتاب العمل السوسي. كما أصدرنا كتاب **السيرة النبوية** بالأمازيغية. ومؤخرًا ترجمنا كتاب **معاني القرآن** إلى الأمازيغية. ولدينا مشروعٌ لـ «تمزيغ الفكر الإسلامي.» هذه كلُّها إصداراتٌ بالأمازيغية حول الإسلام. فهل يستطيع عاقل أن يدّعي أنّ الحركة الأمازيغية تعادي الإسلام؟

لبيض: صراعنا جميعًا، مهما اختلفتْ سبلُنا، يجب أن يكون اليوم ضد شقّ المجتمع. صراعنا يجب أن ينطلق من عمق المجتمع ويؤطِّر داخل المؤسسات الديموقراطية، وإلاّ كان صراعًا سيزيفيًا يَفْتقد المعنى، ويَفْقد البوصلةَ، ويغرق في أتون الشوفينية والعرقية.

إنَّ الحركة الأمازيغية قد تكون آليةً من آليات تحديث الخطاب الثقافي والسياسي المغربي، وأفقًا للتغيير الاجتماعي والسياسي والثقافي. ولكنْ لن يتأتى لها ذلك إذا ظلت منعزلةً في حركيتها وفي خطابها، ولن تصمد كثيرًا إلاّ إذا انصهرتْ في حركة كبرى لقوى التغيير في المجتمع المغربي باختلاف ألوانها وأشكالها. فلا سبيل لتحقيق الديموقراطية، ولا أمل في الاستجابة لمكونات المجتمع المغربي المغيَّبة عن الفعل والممارسة، إلاّ بتقوية حركة قوى التغيير الشاملة، التي بدأتْ بوادرُها في التجلي، وإنْ ما تزال مشتتةً وتفتقد إلى البرنامج الواضح المعالم والأهداف.

أشكركم مجددًا باسم الآداب، **وإلى اللقاء.**

إبراهيم أخياط

رئيس «الجمعية المغربية للبحث والتبادل الثقافي،» وهي جمعية أمازيغية، وعضو المجلس الإداري لـ «المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية،» ورئيس أشغال «المؤتمر العالمي الأمازيغي» لسنة ١٩٩٩.

بنت الشيخ أمينة

مديرة جريدة **العالم الأمازيغي**، وعضو «المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية.»

مصطفى المسعودي

عضو المكتب الوطني لـ «حزب البديل الحضاري،» رئيس تحرير جريدة **الجسر**، عضو المكتب الوطني للقطب الديموقراطي.

أحمد أرحموش

محام، رئيس «الشبكة الأمازيغية من أجل المواطنة.»

الدكتور عمر أمرير

أستاذ جامعي، باحث في الثقافة الأمازيغية، «عضو المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية.»